

روايات مصرية للجيزا

أسطورة

رأس ميدوسا



ماورا، الطبيعة

٦

Looloo

www.dvd4arab.com

١ - الأسطورة ..

تقول الأسطورة الإغريقية إن (برسيوس) البطل المغوار كان واحداً من هؤلاء الأبطال الذين تزخر بهم الأساطير اليونانية ؛ شديد الوسامة شديد البأس .. وهو - كالعادة - ابن (زيوس) من امرأة بشرية .. وعلى حين كان إخوته من الأب يمارسون أعمالهم .. (هرقل) مشغول بقتل (الهيديرا) .. (وأطلس) منهمك في رفع الكرة الأرضية .. و (برومثيوس) معلق بين الجبال يتلقى عقابه الأبدى ، و (جاسون) يبحث عن الفروة الذهبية ؛ كانت هناك مهمة أكثر تعقيداً تنتظر (برسيوس) ..

كانت (كاسيوبيا) الحسنة المغرورة قد بالغت في غرورها ووقاحتها إلى درجة أثار حنق سادة (الاوليمب) ؛ لهذا سلطوا على جزيرتها الفيضانات والزلازل .. ثم جاءت الطامة الكبرى حين أرسلوا للجزيرة تيناً مرعباً اسمه (الكرakon) ، وكان هذا التين يطلب - كالعادة - أن يقدموا له القرابين البشرية ، وإلا أغرق الجزيرة بما عليها ..

وهكذا وجدت (كاسيوبيا) نفسها مرغمة على تقديم ابنتها الجميلة (أندروميديا) لإشباع شهية التين الشره .. وهكذا كانت (أندروميديا) هي الضحية القادمة ما لم يحدث شيء ما ..

وفي هذه اللحظة يصل (بروسبيوس) إلى الجزيرة ..
وطبعًا يقع في حب الفتاة المختارة لغربان التنين ، ويصمم
على قتل الوحش لإتقاذ فتاته .. ولكن كيف ؟ ..
إن هناك طريقة واحدة لكنها أقطع من التنين نفسه ..
رأس ميدوسا ! ..

إن (ميدوسا) وأختيها هن أشنع ما ذكر في الأساطير
اليونانية من مخلوقات ، ويسمونهم (الجرجونات
الثلاث) .. لقد كانت (ميدوسا) وأختاها فتيات طبيعيات
جداً حتى غضب عليهن (زيوس) فأحالهن إلى
أولاً : تحولت الأيدي إلى نحاس ..

ثانياً : ازدن بشاعة وصار لسانهن مشقوقاً كلسان
الأفاعي ..
ثالثاً : تحول شعرهن إلى ثعابين ذات فحيح .. ولدغتها
قاتلة ..

رابعاً : - وهذا أسوأ ما في الأمر - صارت نظرتهم
كافية لأن تحول من تلتقى عيناه بأعينهن إلى حجر ..
خامساً : نفين إلى جزيرة في البحر المتوسط لم تحدها
الأسطورة حيث يعشن في الكهوف ، وسط عشرات
التمائيل الحجرية لأولئك البحارة التعساء الذين ألقى بهم
الحظ العاثر على شاطئ تلك الجزيرة ..

إنه عقاب قامس لكنه ليس أفسى عقاب في الأساطير
الإغريقية .. فكما ذكرنا كان هناك عقاب (بروميثيوس)
الذي قيد بين جبليين وفي كل يوم يلتهم الرخ كبده .. وفي
الليل ينبت له كبد جديد ، وعقاب (سيزيف) العبثى الذي
حكم عليه بدحرجة صخرة إلى قمة الجبل فكلما وصل القمة
سقطت الصخرة للمفح ، وعقاب (تنتالوس) الذي كلما
حاول الشرب من النهر هرب الماء منه ، وكلما حاول
الوصول لتفاحة ارتفعت الأغصان لأعلى .. دعك من
عقاب (إيكو) و (برسفونية) .. وسواهم ..
والآن ...

عليك يا (بروسبيوس) أن تقطع رأس (ميدوسا) !!
ولكن كيف ؟ .. كيف يمكن مواجهة مخلوق بهذه
الصفات ؟ .. دعك من السؤال الأهم .. كيف تقتل مخلوقاً
دون أن تراه ..!؟ ..

لكن (بروسبيوس) - مثله مثل (هرقل) و (ثينيوس) -
بطل إغريقي أصول .. يبحث عن المتاعب حيث وجدت
ويحمل قدره على كفه ولا يملك الاختيار .. لهذا يروق
كثيراً لسادة الأوليمب .. ولهذا يتلقى زيارة من (هرمز)
يحمل له بعض الهدايا التي تبرع بها كل من وجد لديه شيئاً
يتبرع به ..

الخوذة التي تخفي من يرتديها .. والسيف الذي

لا يضرب إلا ويصيب هدفه .. ثم الدرع البراق الشبيه
بالمرأة .. لا بأس بتأتا ..

والآن ينطلق (برسيوس) مع رفاقه عبر مياه البحر
المتوسط قاصدين جزيرة الجرجونات الثلاث .. بالطبع
حدث لهم منات المصائب والغرائب في رحلتهم مثل
ما حدث (لجالون) و (أوليس) العائد من حرب طروادة ...
ونحن لا نعرف مسار الرحلة بالضبط ولا الجزيرة المختارة
لكن من الواضح أنها قريبة جدًا من جزيرة (كريت) ، ولن
أطول سرد القصة ..

دخل (برسيوس) كهف (ميدوسا) وقدماء ترتجان
كالم (جيلي) وهذا من حقه .. حوله عشرات التماثيل
الشلبية لبحارة ماتوا قبل أن يفهموا ما الذي قتلهم ،
الوجوه الصارخة .. الأنف المرفوعة .. كيف شعروا في
اللحظة التي خرجت لهم (ميدوسا) من الكهف لترمقهم
بعينيها الداميتين ...؟.. هل فهموا لحظتها أن حظهم العاثر
اختار لهم - بين كل جزر البحر المتوسط - جزيرة
الجرجونات الثلاث ليغرقوا عندها ؟.. ترى هل تألموا ؟..
إذا لم يكونوا قد تألموا ، فلماذا صرخوا ؟

أسئلة عديدة لا بد أنها دارت في رأس (برسيوس)
ورفاقه وهم ينسلون في حذر ما بين التماثيل باحثين عن
ضالتهم عالمين أن هذه التماثيل ستزداد عددًا بعد دقائق
ما لم تحدث معجزة ما ..

إن من شاهدوا هذه المشاهد في فيلم (صدام الجبابرة)
- والتي خلقتها عبقرية ساحر المؤثرات البصرية (راي
هارى هاوذن) - لن ينسوا هذا الجو الكابوسي أبدًا .. إلا أن
(ميدوسا) لم تكن تزحف كالثعبان ولم تكن تطلق السهام ..
ولم تكن تعيش وحدها ...!

والآن تصحو (ميدوسا) من النوم وتفتح الثعابين في
شعرها ... فيخفى الرجال وجوههم خلف الدروع ...
وتصرخ .

- من ذا الذي يجرؤ على إزعاج (ميدوسا) !؟

فيصيح (برسيوس) مداريًا وجهه :

- أنا (برسيوس) .. جئت لأقتلك !..

وتتقدم (ميدوسا) - وشقيقتها نانمتان لحسن الحظ -
نحو أول الرجال فيتعثر وتلتقى عيناه بعينيها فيصرخ
صرخة رعب لا توصف ، ويتحول لحمه إلى حجر ..
وهنا توجد نهايتان مختلفتان للأسطورة .

النهاية الأولى : تقول إنها رأت وجهها في انعكاس
درع (بروسيوس) البراق فصرخت وتحولت لحجر ...
النهاية الثانية تقول إنها تقدمت نحو (برسيوس) الذي

استجمع شجاعته وحاسة المكان عنده ليطير رقبتها
 بضربة واحدة ثم يبادر بالفرار قبل أن تصحو أختها ..
 إن هناك شيئا واحدا مؤكدا - إذا أمكننا أن نقول ذلك عن
 أسطورة - هو أن (برسيوس) قد قتلها ..، ولم يمس
 شقيقتيها ، وأنه عاد بالرأس في كيس ليظهره أمام التتين
 في اللحظة المناسبة قبل أن يبتلع هذا حبيبته (أندروميذا)
 - حبيبة (برسيوس) طبعًا وليس التتين - وليتحول
 الوحش إلى تمثال حجري .. وتسود السعادة البلاد ..
 الآن حق لـ (برسيوس) أن يستريح ويتزوج ويهنأ
 بالأ ..

أما نحن فلن نستريح حتى نعرف الإجابة على
 سؤالين ..

ماذا حدث للرأس؟ وماذا كان مصير الجرجونتين
 الباقيتين؟ بالنسبة للسؤال الأول لم تتفق الأساطير على
 إجابته .. ثمة حكايات تقول إن (برسيوس) رمى الرأس
 في مياه البحر ..، وثمة حكايات تقول إنه أهده لـ (حيرا)
 زوجة (زيوس) لتتخلص به من أعدائها ، وثمة حكايات
 تتجاهل الأمر برمته تاركة ذلك لخيالنا ..
 السؤال الثاني ظل - وسيظل - بلا إجابة .. ماذا حدث
 للشقيقتين!؟

والآن تعالوا نغلق كتاب الأساطير تاركين (برسيوس)
 مع عروسه الجميلة و (ثيديوس) في المتاهة مع
 المينوطور .. و (ديدالوس) يرفرف بجناحين من شمع مع
 ابنه إيكاروس الذي أرجو ألا يقترب كثيرًا من الشمس ..
 تعالوا نترك كيوبيد وبشبيهه يتهايمان .. وشارون
 مبعوث الجحيم مع كلبه ذى الرأسين ..

لنترك هذا العالم الساحر ونعود إلى أرض الواقع ..
 إلى الجزيرة الصغيرة الهادئة حيث يقوم عالم الآثار
 اليوناني (ستافروس نندرينوس) ببعض الحفريات ..
 وحيث ستحدث كارثة بعد قليل ..

★ ★ ★



جزيرة (كارادوس) في بحر (إيجه) .. الخامس عشر
من أبريل عام ١٩٦٦ ..

كان الحر شديد الرطوبة يلتف حول كل شيء .. خانقاً ..
كربها .. لزجاً ، وهناك في خيمته والبعوض يحاصره
والذباب يلتهم طعامه بدا لعالم الحفريات العجوز
(ستافروس نيندريوس) أن الحياة لا يمكن أن تكون أسوأ
ما هي عليه في هذه اللحظة ، ومن حين لآخر كان ينظر
إلى الصخور المكونة لمجموعة الكهوف الملاصقة
للشاطى شاعراً بالاشمئزاز والمقت لكل شيء ..

٣ ها هو ذا يزحف نحو السبعين من عمره دون أن يضيف
شيئاً أو يعرفه أحد .. في كل مرة يحدث نفس الشيء ، إناء
محطم من الخزف أو قطعة بلهاء من تمثال يتبه بها فخراً
وسروراً لدقائق ثم يكتشف أن أحداً لا يعبأ بكل هذا .. ما هي
الفائدة المرجوة من أن تعرف أن جندياً يونانياً كسر طبقه
في هذا المكان أو ذاك منذ ثلاثين قرناً ..؟ الواقع - كما
أدركه في هذه اللحظة - أنه أضاع حياته عبثاً .. وبرغم
احتفاظه بصحة لا بأس بها فإنه كان من أعماقه يشعر أن
عمره قد تجاوز المئة بمراحل ، ولم يكن يدري لماذا

يستمر في أي شيء .. ومن الذي قرأ كتبه الثلاثة المملة
عن (أنماط الخزف في الحضارة الهلينية) ١٢ ..؟

ثم بعد ذلك يأتي الحر .. الحر اللعين ..
شرب كوباً آخر من الماء سرعان ما تحول إلى قطرات
عرق على جبينه .. وكان قد ربط رأسه بمنديل كعادته
ومن فوق المنديل وضع الكاب الواقي من الشمس فهذا
كأحد جنود الحملة الإنجليزية في الهند .. اليوم هو آخر
أيام الحفر في هذا الموقع وبعد هذا .. وبعد هذا مقبرة
أخرى والمزيد من الأواني الخزفية المحطمة .. وهكذا حتى
يأتي اليوم الذي لن يصحو فيه من النوم صباحاً وسيقول
القس كلمات كثيرة عن (شهيد العلم الذي فارقنا) ..
وبعدها سينسى الجميع حتى أنه وجد أصلاً ..

ومن بعيد كان (نيكوس) قادماً يترنج والمعول
في يده ..

- سيدي .. هناك جدار من الصخر .. صخر هش
للغاية ، وقد حطمت جزءاً كبيراً منه هل ستأتى معنا !؟
- جدار من الصخر ؟ .. ولماذا بحق السماء ..؟

قال (نيكوس) بعد أن بصق على الأرض ومسح شاربه
الكث :

- لا أدري .. المقبرة هي المقبرة .. لكن هذا الحائط
يعطى انطباعاً ما .. كأنه يعزل شيئاً ما عن باقى الكهف ..

للحظة تأمل عالم الحفريات العجوز في معنى كلمات
العامل .. جدار يعزل شيئا ما عن باقي المقبرة .. غريب ..
ولكن ماذا سيسفر عنه كل هذا سوى المزيد من التماثيل
المحطمة ؟!

- وبعد سيدي .. هل نستمر ؟

نظر عالم الحفريات إلى ساعته .. إنها الخامسة مساءً
وبعد قليل سيخيم الظلام .. ربما كان من الحكمة أن يؤجل
هذا كله إلى الغد ، ثم إن هؤلاء البؤساء لم ينالوا قسطاً من
الراحة من التاسعة صباحاً .. نعم .. يستطيع التاريخ
اليوناني أن ينتظر ليلة أخرى .. جفف قطرات العرق من
فوق زجاج نظارته وغمغم :

- اسمع يا (نيكوس) .. يمكنك أن تواصل الحفر إذا كان
الفضول يملكك .. لكن لا تجبر أحداً من الرجال على العمل
إذا لم يرد ذلك .. إن غذا لناظره قريب .. ثم جفف عرقه
وتثائب :

- أعتقد الآن أنني بحاجة للحمام والنوم .. فليذهب
(زيوس) للجحيم ..

ابتسم (نيكوس) من خلف شاربه الكث ، وأخرج
سيجارة من صندوق معننى :

- وإذا وجدنا شيئا .. هل نناديك ؟! ..

- بالطبع .. ولكن ليس لشيء أقل من
(أجاممنون) (*) نفسه ..!

(*) أجاممنون نفسه : واحد من أشهر أبطال حرب طروادة .

واستدار (ستافروس) متجهاً إلى كوخه - وممكنه -
وهو يمسك بظهره متوجفاً .. في حين عاد (نيكوس) إلى
العمال ليصرفهم ... وعلى حين بدأ الرجال في العودة
مغبرين غارقين في العرق التفت (ستافروس) إلى كبير
عماله ، هاتفاً :

- (نيكوس) .. كن حذرا .

وفي كوخه غسل (ستافروس) وجهه في طبق به
بعض الماء وصابونة .. وارتنى نظارته ، ثم إنه صب
لنفسه بعض (الأوزو) في كأس وشرع يجرع في
مرارة .. المروحة الصلبة تنن ولا تفعل شيئا تقريبا فقد
فرغت بطارياتها ..

أخرج دفتر مذكراته وقلم الحبر .. وأشعل موقد
الكيروسين طالباً بعض الضوء حيث إن الظلام كان قد بدأ
يزحف .. وفي الدفتر خط الكلمات التالية :

- آخر يوم في الحفر .. يبدو أن هناك شيئا يستحق
الاهتمام .. لقد وجد (نيكوس) نوعاً من الجدار المزدوج
في المقبرة .. ويقول إن هذا الجدار يدارى شيئا ما .. شيئا
حرص من حفرها المقبرة على عزله .. وجرع جرعة
أخرى من الكأس ..

منذ شبابه لم يشعر بهذا التوتر الغريب .. شعور
غامض يداهمه أن شيئا ما سيحدث .. هذا الشعور لم

بدايمه سوى مرة واحدة يوم أن ماتت زوجته فى ذلك
الحادث الشنيع .. السيارة .. النيران .. و ...
ما هذا ؟ ..

هل سمعت هذه الصرخة ؟ .. هذه الصرخة المريعة
الطويلة القادمة من أعماق الجحيم ؟ .. كاد قلبه يتوقف عن
الخفقان .. ثم إنه هرع لباب الكوخ حيث الغروب قد بدأ
يصبغ المرتفعات باللون القرمزى .. لاشك فى ذلك .. إن
الصرخة قادمة من موقع الحفريات الذى يبعد منى متر
عن هذا الكوخ ..

(نيكوس) كان يواضل الحار وحيداً مدفوعاً بشغفه
لمعرفة ما وراء الجدار .. ماذا حدث ؟ .. انهيار ؟ ..
ذنب ؟ .. كلا .. إنها صرخة غير عادية .. حتى الإنسان
الذى يلتهمه ذنب فى تلذذ لا يجد ضرورة قوية لأن ينهك
حنجرته بمثل هذه الصرخة .. لا يوجد فى الكون كله حافظ
يدفعك لأن تصرخ بهذا الشكل ..

والآن هناك شيء واحد يمكن عمله .. البنديقية
والكشاف .. وليهرع ليرى ما حدث ، وليصمت وجيب
قلبه قليلاً .. ليس الوقت مناسباً للإصابة بنوبة قلبية ..
لقد حدث شيء ما .. وهو الوحيد الذى سمع تلك الصرخة ،
وهو الوحيد الذى سيرى ما أصاب هذا التمس (نيكوس) ..

★ ★ ★

عند بوابة المقبرة أطلق شعاع بطاريته .. لاشيء ..
بقايا الحفر وأدوات العمال .. أدخل قدمه فى حذر من
الفتحة وخطاً للداخل .. وشرع يدير شعاع البطارية على
النقوش الجدارية المألوفة .. ثم تصلب الشعاع على فتحة
بحجم رجل فى الجدار المقابل .. هذه هى فتحة الجدار
التي اصططنها (نيكوس) الأمين ليدخل إلى الغرفة
السرية .. ربما منذ دقائق ..

اتجه إلى الفتحة وكنم أنفاسه وسنط الشعاع على
الداخل .. غرفة خاوية تلوح منها روائح العفن .. تمثال
حجرى كامل لشخص جاث على ركبة واحدة .. وثمة بعض
الدروع الصندنة مبعثرة هنا وهناك ..
إذن أين (نيكوس) ؟ ..

سلط الشعاع على التمثال الحجرى متقن الصنع إلى حد
غير عادى .. الشارب الكث والقلنسوة .. والوضع الجائى
الذى لم يره فى أى تمثال إغريقى من قبل .. ثم .. شارب
وقلنسوه .. !؟

وهنا انتصب الشعر فى مؤخرة رأسه .. وأعاد تأمل
ملامح التمثال .. كلا ..! هذا مستحيل ..! لقد فهم ..! أن
هذا التمثال هو .. هو .. (نيكوس) نفسه !!

★ ★ ★

وفي الكوخ علق (ستافروس) الكيس بما فيه علق
مسمار في غرفة النوم ، ثم عاد مرتجفاً إلى مكتبه ، وخط
الكلمات التالية :

.. لقد وجدنا رأس (ميدوسا) !.. وكلفنا ذلك غالباً ، إن
المسكين (نيكوس) قد فوجئ وهو يحفر في التربة برأس
ذلك الكابوس يرمقه أن هناك الكثير من الأسنلة وكثيراً من
علامات الاستفهام لكن الشيء المؤكد لي هو أنني على
أبواب أعظم وأخطر كشف في هذا القرن .. رأس
(ميدوسا) !..

★ ★ ★

نعم .. هناك الكثير ... وحين يسلم هذا الرأس لقبضة
العلم ليتم تصويره بأشعة جاما .. ودراسة جزيئاته وتحويل
الكربون فيه .. وتشريحه ... و ... و ... لقد كشف
(كارتر) مقبرة توت عنخ آمون ، أما هو .. (ستافروس
ندرينوس) فقد وجد رأس (ميدوسا) !.. رأس (ميدوسا)
سالماً ومحتفظاً بلعنته بعد كل هذه القرون .. في نشوة
رفع نظارته السمكية على قصبه أنفه ..
و.... صوت الخرفشة هذا ..

لقد نسي الفئران تماماً !.. الفئران التي تملأ الكوخ
والتي ستجذبها حتماً رائحة الشيء شبه المتحلل .. نهض

بعد أن خرج من المقبرة .. وضع قرصين من
(النتروليمرين) تحت لسانه ، وانتظر حتى هدأ قلبه من
رفرفته .. ثم إنه بدأ يستجمع شتات أفكاره التي بعثرها
الذعر الحيواني الجارف ... إنه لا يحلم .. والآن لا يوجد
في العالم شيء يمكن أن يحول الإنسان إلى حجر .. لا شيء
في العالم المادي ، لكن هناك شيئاً واحداً في عالم
الأساطير .. شيئاً واحداً يملك هذه القدرة .. وهو عالم آثار
يوناني ويعرف تماماً هذا الشيء ..

سيعود للكهف ولكن بحذر ... عاد للفتحة في الجدار ..
ودلف منها إلى الحجرة الكابوسية .. كان تمثال (نيكوس)
- كما قلنا - جاثياً على ركبة واحدة يرمق في رعب شيئاً ما
على الأرض .. شيئاً أزاح عنه التراب لتوه ..

أغمض (ستافروس) عينيه في عصبية وجثا على
الأرض بين يدي التمثال وتحسس الشيء حتى وجده ..
وجه .. أشياء طويلة تخرج حيث ينبغي أن يكون الشعر ..
نعم !.. إنه هو !.. وفي حذر أخرج كيساً قماشياً سميكاً
من جيبه ودمس فيه الشيء البشع .. ثم فتح عينيه ليجد
أمامه وجه التمثال المليء بالرعب حيث جثا على ركبة
واحدة أمامه كأنما يتلخصه ..

★ ★ ★



لقد نسي حذره للحظة .. ربع ثانية لكنها كانت كافية ..

- وقد عزم أن يضع الكيس في خزانته حتى الصباح -
حاملًا في يده مصباح الكيروسين ..

في غرفة النوم وجد بالفعل الكيس وقد سقط من على
المسمار وفأزا بهرع منسلا من فوق عروق الخشب
القديمة المبطنة للغرفة بعد إن ضبط متلبسنا .. انحنى
جوار الفراش ليرفع الكيس وهو يسبب .. ووضع المصباح
على الأرض ..

إن شرود الذهن يحدث للجميع .. وخاصة كبار السن ..
وبشكل أخص يحدث للعلماء ، لكن شرود الذهن ليس
مبرزا لهذا الخطأ القاتل ..

لقد نسي حذره للحظة .. ربع ثانية لكنها كانت كافية ..
كان الكيس قد انفتح عندما أسقطه الفأر ..
وهناك - جوار الفراش - وجد نفسه يحدق في العينين
الجهنميتين لـ (ميدوسا) !..

★ ★ ★

نهاية العام الدراسي في مصر ..

كنت في ذلك الوقت غارقاً حتى أذني في المحاضرات الختامية لطلبتى عن أمراض الدم ، وكانوا يحاولون في خبث جعلى أنزلق بالكلام كاشفاً عن بعض الأسئلة التي تجول بخاطري والتي يمكن أن أضعها - لا شعورياً - في ورقة الامتحان ، وكنت أنا معتاداً على هذه للمواقف وأحسن التلاعب بهم وتضليلهم حتى لا يعتمدوا كثيراً على ذكائهم أو على حماقتى ..

وفي ذلك اليوم الحار كنت أحدثهم عن سرطان الدم النخاعي ، حين لاحظت أن ثلاث طالبات جالسات يتهايمن في خبث ويرمقننى .. ويضحكن ..

لقد اعتدت هذه المواقف من الفتيات .. وليس هذا لعب واضح معين في طباعى أو شكلى أو سلوكى .. بل هو - ببساطة - لأننى لم أتزوج بعد وقد بلغت الأربعين من العمر! والمرأة تفهم أن يكون الرجل غيباً أو جباناً أو مجنوناً أو وقحاً .. تفهم هذا ولربما غفرته له .. لكنها لا تفهم أبداً ذلك الرجل الذى لا يتزوج !..

إنها تسمى به الظنون وتمسح حوله منات العقد النفسية .. غير عالقات - سامحهن الله - أنه لم توجد فى الكون سوى (ماجى) واحدة ، وكانت لى ، ثم ذهبت ولم تترك لى (ماجى) أخرى .. الأمر بسيط إذن !..
المهم أننى أزمعت أن أوجه لهن لوفاً ما .. إلا أننى لاحظت أنهن يمكن بحريدة ما تحت الطاولة يتفحصنها ويواصلن الهمس الماكر ويختلسن النظر لى ..
شئ ما فى هذه الجريدة يتعلق بى بالتأكيد .. هذا غريب !..

★ ★ ★

وفى الاستراحة توجهت إلى غرفتى .. وفتحت درجى لأفحص جرائد اليوم التى لم أقرأها بعد .. وفى إحداها وجدت ضالتي .. كانت هناك صورة صغيرة باهتة لى أنا و (هارى شيلدون) نبتسم للكاميرا فى بلاهة .. وتحتها تعليق صغير يقول إن إحدى الجرائد الأمريكية نشرت خبراً عن خبير كمبيوتر أمريكى وأستاذ مصرى استطاعا أن يكشفوا سر الزومبى فى جامايكا وأن يوقعا بمدير مستعمرة جذام فرنسى أساء استغلال مرضاه ..

هذا هو الخبر .. إذن نشروا بالفعل ذلك التحقيق الصحفى الذى أجره معنا عند عودتنا من مغامرتنا

الكابوسية السابقة في جامايكا ... وتسرب هذا الخبر إلى
محررينا المصري ..

لم يذكر الخبر اسمي لكن وجهي كان واضحا في
الصورة ، وللأسف كان منشورا في ركن صغير مهمل من
الجريدة حتى أنني أنا نفسي لم أكن لألاحظه لولا أن لاحظته
طالباتي الثلاث الخبيثات ..

يا للفخر !..، لكم تمنيت لو يسمح لي العميد بتوزيع
نسخة من هذه الجريدة على كل طالب وطالبة ليعرفوا كم
أنا رائع !.. لكنه سينسفني حتماً قبل أن أفعل .. وضعت
الجريدة مفتوحة على تلك الصفحة في أوضح مكان في
غرفة التدريس .. ثم شرعت افتح الخطابات التي
وصلتني وكنتي رضا عن العالم ..

★ ★ ★

لم تكن المفاجآت قد انتهت ..
ها هو ذا خطاب من اليونان يصلني .. وأنا لا أملك
معارف في هذا البلد ، لهذا تأملت المكتوب على المظروف
في فضول متجاهلاً تلك الحروف اليونانية العجيبة ..
كان هناك اسم بالإنجليزية .. اسم من أرسل الخطاب ..
مسز (تابيثا كاراداكيس) ..

أنا أعرف واحدة تحمل اسم (تابيثا) .. لكنني لا أعرف
هذا الكا .. الكاراداكيس .. على كل حال فتحت الخطاب في
توتر .. فوجدت صورة جميلة - ومفزعة - بالقلم
الرصاص تمثل رجلاً يقف ما بين مصاصي دماء وأشباح
وهياكل عظمية .. وهذا الرجل هو صورة كاريكاتورية لي
أنا !.. وتحتها خطت حروف بالإنجليزية تقول : تذكر أن
هناك دائماً مرة أخيرة !..

فتحت الورقة المصاحبة للرسم فوجدت السطور
التالية :

عزيزي رفعت ..

لقد مر دهر كامل منذ سفرك عائداً إلى مصر ..
ولأندري حقاً إن كنت نسيتني أم لا .. أنا (تابيثا
ماكجفرت) .. هل تذكرنا في جامعة داندي ؟ كنت أنا من
شلة (ماجى ماكيلوب) ، كنت تجد صعوبة في تذكر
اسمي .. ولكم كانت (ماجى) تغار عليك مني !..

حسن .. لقد ذهبت تلك الأيام إلى الأبد .. أما أنا فقابلت
شريك حياتي في أثناء زيارته لاسكتلندا .. عالم الآثار
اليوناني الومسي (ميخائيل كاراداكيس) .. ومن لاحظتها
غدوت السيدة (كاراداكيس) وعدت معي إلى بلده الجميل
اليونان .. واتقطعت علاقتي باسكتلندا ..

أما عن مسار حياتي ، فأنت تعلم كم كنت أعشق الأدب ..
وفي بلد كالليونان وجدت جذوري الحقيقية .. واتجهت إلى
الكتابة وخاصة قصص الرعب التي لا أدرى لماذا أبقى قلمي
أن يخط سواها .. ولى في أسواق أوروبا كتاب أو اثنان
متوسطا النجاح ..

إن زوجي يعمل حاليًا في مجموعة من الجزر الصغيرة في
بحر (إيجيه) ما بين (كريت) و (رومس) ، وعمله مثير إلى
أقصى حد .. تصلنا الجرائد العالمية مرة كل شهر تقريبًا ..
وفي الشهر الماضي كنت أتصفح إحدى الجرائد الأمريكية
حين وجدت مقالة عن مغامرة مع الزومبي قام بها أمريكي
وطبيب مصري .. وكانت صورتك منشورة أعلى المقال ،
إنك تزداد قبحًا عامًا بعد عام (!!) إلا أن نظرتك المميزة
وقامتك الناعمة لم تتغيرا أبدًا ..

وكان المقال يحكى عن طبيب مصري اسمه (رفعت
إسماعيل) (بهوى) مصاصى الدماء والمذموبين وأكلة لحوم
البشر .. هرعت وأرسلت خطابًا لـ (ماجسى) فى
(انفرنسباير) أسألها عما إذا كنت أنت هو هذا الذى تتحدث
عنه المقالة أم أن حالة هلوسة قد أصابتنى .. وعلمت من
ردها أنك المعنى بالفعل .. وأنت لم تتزوجها - رغم كل هذا
الضحيج - وأنت أنقذتها من وحش (لوخ نس) نفسه ..! ..
وأعطتنى عنوان جامعتك ..

والآن .. أكتب لك يا (رفعت) - اسمح لى برفع الكلفة -
كى أقول لك إن هناك أشياء غير عادية تحدث فى هذه
الجزر ، وأنسى وزوجى فى أمس الحاجة للاستعانة
بخبرات (استشارى رعب) مثلك ..

لن أحكى لك التفاصيل ... لكنى أؤكد لك أن الأمر سيثير
اهتمامك ... وأنت ستحب اليونان ، وستحب (ميخائيل)
زوجى ، وستجد صداقتك القديمة مع شيطانة الجامعة
الموهوبة (تابيثا ماكجفرت) ..

بانتظار ريك ... وستكون تذكرة سفرك على نفقتنا أنا
وزوجى لأن هذا جزء بسيط من دين الصداقة ، فقط قل لى
متى وأين وكيف نقابك ...
إنك لن تنسى ما حبيت هذه الرحلة ...

بإخلاص :

(تابيثا كاراداكيس)

أغلقت الخطاب وغرقت فى دوامة الذكريات .. (ماجسى)
وأنا وأشباهك وتابيثا .. والشباب المرح المفعم بالأمال ..
ورسالة الدكتوراه التى يشرف عليها السيد (جيمس) والد
(ماجسى) نفسه ... و ...

لن أنسى هذه الرحلة أبدًا .. هكذا قالت .. وهكذا توقعت
أنا ، لم أمارس فى حياتى أية تجربة يمكن نسيانها حتى

اللحظة ... وقبل كل سفر لى كنت أجد دائماً من يعنى
بأننى لن أنسى .. وبالفعل لا أنسى!.. وإن حشد الرحلات
التي لا تنسى فى مخزن ذاكرتى قد تزايد إلى حد أننى لا أجد
مكاناً للنوم!..، وعننى د . (ريتشارد كامنجز) ..
و (جوستاف)، و د . (عاصم) .. وسير (جيمس) ..
و (هارى شيلدون) .. و (عادل) .. إننى لن أنسى ..
وبالفعل كانوا محقين!!

إلا أن موضوع الرحلة يثير شغفى ، واليونان بلد عريق
الحضارة مليء بالأفكار يستحق أن يضاف إلى قائمة
البلدان التي لن أزورها مرة أخرى فى حياتى!..
المهم الآن أن أنهى أعمالى سريعاً .. وأن أبدأ إجراءات
إجازتى بمجرد انتهاء موسم الامتحانات ..
إن (كريت) لن تنتظرنى كثيراً ..

★ ★ ★

٤ - رعب جديد ..

[ولكننى أعرف هذا التمثال .. هذا الوجه
المذعور ..] ..

★ ★ ★

أخذ الزورق يشق طريقه بين أمواج بحر (إيجه) وقد
بدا للنوتى أن الحياة كلها صفحة من الماء يجب أن يشقها
إلى نصفين .. إلا أن الماء كان يخدعه ويلتزم كلما تأكد من
أن الزورق قد ابتعد .. وأن النوتى لم ير ما حدث!..
رائحة البحر وطيور النورس الأنيقة .. وتململ الركاب
بؤكد أننا وصلنا إلى جزيرة (كارادوس) ..

لن أحكى لكم عن دوار البحر الذى أصابنى حتى
لا تشعرُوا بالملل من ضعفى .. أنا لا أفعل أى شيء يستطيع
أبطال القصاص أن يفعلوه .. وإنه لحظكم الممين الذى
أوقعكم مع بطل قصة مثلى مصاب بدوار البحر والربو
والذبحة الصدرية والشيب!..

إنها جزيرة (تابيئا) حيث يعمل زوجها وحيث ضربت
لى موعد اللقاء .

★ ★ ★

وصل الزورق إلى الشاطئ .. وشرع الركاب ينزلون وأنا بينهم .. لم يبذ على واحد منهم أنه (مسافر) سوى ، فهم - كما هو واضح - قد اعتادوا التنقل بين الجزر كأنهم ينتقلون في ضواحي مدينة واحدة .. بل كانت هناك امرأة أو اثنتان تحملان بعض الحاجيات التي اشترتها من (كريت) .. كأنهما عائدتان من السوق ..

نزلت على الأرض وأغمى ما تزالان تشعيران بتأرجحهما .. وعن كئيب لمحت صديقتي القديمة (تابيثا) وزوجها (ميخائيل) يرتديان نفس الثياب تقريبا .. قميص بسيط وينطلون من قماش خشن سميك وقبعة .. وكانا يلوحان لي في مرح .. اتجهت نحوهما حاملاً حقبتي ..

وكان زوج (تابيثا) شديد الوسامة فارح القامة كمثل لأدوار الفتى الأول .. أما هي فكانت بقبحها المعهود مع احتفاظها بروحها المرحة وسرعة بديعتها .. وركبنا سيارة (جيب) عتيقة تمخر بنا في شوارع القرية - أو الجزيرة لأندري بالصبط - وسط نظرات الفضول .. الكل ينظر إلينا بلا استثناء ..

الرجال بشواربهم الكثثة على المقاهي .. والأطفال الذين يلعبون حفاة في الطرقات .. والحسناوات العائدات بجرار المياه من (الظلمية) .. والعجائز المتمربلات بالسواد اللواتي يشبهن عجائزنا في مصر إلى حد مروع ..

وتبدأ الهمسات والنظرات الجانبية .. إنه ليس جوا عاديا .. فقط هو جو كل هذه البلدان المنغلقة على نفسها والتي يكون وصول وجه غريب إليها حدثا جليا .. ربما يصير يوما يؤرخون به الأحداث فيما بعد ..! فيما عدا ذلك كان المكان رائعا .. وبهيجا ..

★ ★ ★

أشار (ميخائيل) إلى الكوخ وقال بإنجليزية رديئة جداً وهو يشد فرملة اليد :
- هذا .. بيتك .. وبيتنا ..

نزلت من السيارة مبدئياً علامات الانبهار لأخفى خيبة الأمل تجاه هذه الكومة النخرة من الأخشاب التي سأعيش فيها .. ومعهما ! .. على كل حال لم أمن أن هذين الزوجين موجودان في الجزيرة بصورة مؤقتة وليس من صواب الظن أن أعتقد أنهما يملكان فيها قصراً ..
أشرت إلى كوخ على بعد مائة متر حالته أكثر سوءاً .. وقد بدا كئيباً كالكاپوس :
- وهذا ؟ ..

قالت (تابيثا) وقد تبادلت مع زوجها نظرة ذات معنى :
- هذا بيت الأستاذ (ستافروس نندرينوس) .
ثم فتحا لي باب الكوخ الخاص بهما .. دخلت وأنا أشم في الجو رائحة لا تطاق .. الخشب المغطى بالرطوبة

والطحاب .. ونقص التهوية ، لكنى سأعود !.. المهم
ألا يهربا هما أولاً فراراً من رائحة سجائرى التى سنتعلم
هواء هذا الكوخ بعد دقائق !.. وقانى (ميخائيل) إلى
غرفة بها فراش صغير .. ومكتب .. وخزانة ثياب ..
غرفة نظيفة فى الواقع ومريحة .. لولا تلك الرائحة
اللعينة، وأشار لى إلى وعاء للفصول وقطعة صابون
ومنتشفة .. ثم تركنى لأستعد للعشاء .. إلا أنه تذكر أن يعود
برأسه ليطل من الباب .. ويضم أصابعه أمام فمه بحركة
ذات معنى :

- تذكر .. لا .. لا ..

كان يحاول البحث عن الكلمة .. وقد فهمت قصده لكننى
تظاهرت بالحماقة لأعطيته :

- ساندوتش ..؟ .. أحمر شفاه ..؟

- كلاً .. كلاً .. كلاً ..

- تكخين ..؟

- نعم .. نعم .. لا تكخين .. ممنوع !..

قضى الأمر إن ..!.. سأظل أشم هذه الرائحة للأبد لكنى
- على الأقل - سأريح رتى بعض الوقت طالما بقيت فى
هذا الكوخ .. استهدت بثيابى ثياباً مريحة أكثر .. وغسلت
وجهى وشعرى ، ثم لحقت بهما فى المطبخ الواقع فى
الجزء الخلفى من الكوخ .. وكانت رائحة الطعام شهية
حظاً .. على المائدة كميات هائلة من الأسماك المشوية
والخبز و - بالطبع - الزيتون ..

وبدا العشاء يسوده المرح .. قلت لـ (تابيثا) وأنا
أكافح الأثواك فى إحدى الأسماك التى أجهل نوعها
تماماً :

- إن زواج كاتبه قصص بعالم آثار يذكرنى ..

تبادلت هى وزوجها نظرة باسمرة ذات معنى ..
وتساءلت فى خبث :

- يذكرك بمن ؟ ..

- « بـ (أجائا كرسى) .. هى أيضاً كاتبة قصص

وزوجها عالم آثار ، وتقول عنه »

إلا أنها لم تهتم ببقاى كلامى .. إذ التفتت لزوجها ، قائلة

فى انتصار :

- ألم أقل لك إنه تقليدى ..!؟ - ثم قالت لى مفسرة - كنا قد

تساءلنا أنا و (ميخائيل) عما إذا كنت ستكرر ذلك التعليق

السخيف الذى يقوله كل من يعرف بأمر زواجنا معتقداً أنه

تعليق عبقرى !.. وكان هو يرى أنك تبدو نكياً مبتكراً ولن

تقول نفس السخافات ، أما أنا فقلت إننى أعرفك جيداً !..

احبرت أنأى خجلاً .. يا لك من شيطانة !.. لقد جعلت

منى أحمق حقيقياً أمام نفسى ، على العموم سنحاول تجاهل

هذه الدعاية الثقيلة ولنحدث عن أشياء أكثر مرحاً .. وماهى

تلك الأشياء الأكثر مرحاً سوى الأشباح ..!؟ ..

بدأت (تايبيثا) تسألني في اهتمام عن كل ما ذكرته لها (ماجى) ... وبدت عليها الحيرة وخيبة الأمل حين أدرت أنني لست الخبير الذى كانت تظنه ... بل إن علاقتي بالأساطير هي (الهدم) وليست (البناء) ... فهي - ككاتبة قصص رعب - كان يرضيها بالطبع أن تكون النداهة والمذعوب والزومبي حقائق ... إلا أنها بدأت تفهم حقيقة أنني (بطل بالصدفة) يقع دائما في شرك هذه المواقف دون فضل له في ذلك ..

قال لى زوجها ، مبتسما :

- على كل حال .. أنت لم تهتدي كثيرا عن قدرك حين جنت اليونان ..!

- ماذا تعنى ..!؟ ..

- إن اليونان بلد شديد القموض ، وأساطيره المرعبة لانهاية لها ..

ثم تفكر قليلا باحثا عن الكلمات المناسبة .. وهمس :
- مثلا أنت تظن أن (رومانيا) - وخاصة مولدافيا ووالاشيا - هي أصل أساطير مصاصى الدماء .. حسن .. هل تعرف أن مصاصى الدماء ألويفون جدا في القرى اليونانية خاصة لدى العجائز ؟ .. لا أعنى بهذا أنهم موجودون حقا ..

قالت (تايبيثا) وهي تتلذذ بملاح الذعر على وجهي :
- يسمونهم (الفرابكولاكاس) ... وحتى اليوم توجد قرى يونانية تحشو فم المتوفى - خاصة إذا كان شابا وميته غير مبررة - بالثوم . وتضع قطعى فضة على عينيه لمنعه من التحول إلى مصاص دماء ..!.. (*) .

أحسست بجلد نراعى يتحول إلى جلد إوزة بسبب القشعريرة التى أصابتني من الفكرة ... ماسر هذه الأسطورة ؟ .. ماسر تطفلها في التراث الإنسانى لكل الشعوب إلى هذا الحد ؟! .. وتكررت محاوره قديمة دارت بيني وبين د . (ريتشارد كامنجز) منذ .. منذ عشر سنوات ..! .. حين قال لى إنه لا بهد من أصل واقعى لكل أسطورة .. ترى أين هو ؟ وأين أمرته اليوم ..؟ ..

- والرجل الذئب ..

استطردت (تايبيثا) وعيناها تلمعان في حماسة :

- هل تعلم أن أصل هذه الأسطورة هو اليونان وليس رومانيا ؟

- مستحيل ..

- إن أصلها من (أركاديا) ... طبيب يونانى هو (مارسلوس السايدي) وصف هذا المرض وأسماه (لايكا انثروبى) ... أى (حالة التصور الذئبى) ... وصف مرضا

(*) حقيقة .

يتحول فيه الإنسان إلى ذئب يأكل اللحم النيء ويعوى حين يرى القمر ... وقد وصلت هذه المقالة إلى الأطباء العرب عن طريق (إيطس الأميدي) ... وقد كتب عن هذا المرض أطباء عظام مثل (ابن سينا) و (الزهرأوى) ... وأسماه بداء (القطرب) .. وهي ترجمة غير موفقة لكلمة (لايكا انثروبي) (*)

- أنا .. أنا .. لم أعرف هذا بتاتاً ...

قلتُها في حيرة .. وقد عاودني ذلك الشعور المرير القديم .. إنني أكتشف - كلما تقدمت في السن - أنني لا أعرف شيئاً على الإطلاق ..

والآن يا (تابيثا) ماذا تتوقعين أن أقدمه لك ولزوجك من مساعدة وأنت كما هو واضح تعرفين كل شيء عن أي شيء في العالم ؟..

★ ★ ★

قال لي (ميخائيل) بعد أن انتهى العشاء .

- هل أنت بحاجة للنوم ؟..

- بتاتاً .. إنني شديد الحماسة لرؤية هذه الجزيرة ..

- لا يوجد الكثير في الواقع .. فمساحتها كما ترى

وسكانها لا يتجاوزون المنتئين كلهم صيادون أو

رعاة .. وقس .. وحفار قبور .. وصاحب مقهى ... إنها

مملة حقاً ..

(*) حفيقة .

قلت له وأنا أنظر إلى (تابيثا) :

- الآن .. حدثني عن الكابوس الجديد الذي ينتظرنا

ها هنا والذي حاولت أن نتناساه بهذا الحديث المسلى عن

مصاىء الدماء والمذعوبين !..

بعت في عينيه الزرقاوين نظرة حيرة .. عدم الفهم ،

والثفت لزوجه متمسكاً .. فأطلقت من فمها فيضاً - كطلقات

المدفع الرشاش - من الكلمات اليونانية لترجم له عبارتي

المتلثة التي لم يفهما .. أول مرة ... ولما فهم - أخيراً

قال لي :

- مغيرة .. فأنجليزيتي لمست على ما يرام ، للأسف

تعلمت (تابيثا) اليونانية كأهلها قبل أن أتعلم منها

الإنجليزية ، وهكذا لا أمل لي في التحسن ..

ثم استدار لها وفتح مدفعه الرشاش عليها مطلقاً منات

الجميل باليونانية ، فأتجهت إلى مصباح كهربى صغير

ووضعه في يده ..

- والآن تعال معي ..

مرت معهما إلى حيث أتجهنا إلى باب الكوخ ، وفتحاه ..

كان الظلام قد بدأ يغمر الجزيرة وللمرة الأولى فهمت أنه

لا يوجد ضوء كهربائي فيها .. البيوت المعودة والأكواخ

قد اتسحت بعباءة الظلام الكئيبة ، وعلى الشاطئ تنتشر

لم يطلق (ميخائيل) .. وتكلمنا نحو قاعة لمسيحة نوعاً
تبدو وكأنها كانت للصالة في هذا الكوخ .. وكانت قطع
الأثاث المعودة البسيطة مغطاة بقطع من القماش المكسو
بالألزبة وخيوط المنكبوت ..

وفي ركن القاعة كان هناك تمثالان مغطيان
بالملاءات .. وأدوات حفر .. ومجموعة من الكتب
محزومة بالحبال ..

انحنيت (تابيثا) على الأرض والتقطت شيئاً ما ..
وبسته في يدي وهي تبسم في رقة .. تأملت هذا الشيء
فوجدته تمثالاً لغار صغير يتلوى .. تمثالاً متقلنا إلى حد غير
عادي ومصنوعاً من الحجر الجيري ، وكانت إحدى قدميه
الخلفتين مكسورة :

- ما رأيك ..؟.. ظريف أليس كذلك ؟

قلت لها في حيرة ..

- بلى .. ولكنه موضوع غريب للبحث .. لا أنكر أنني
رأيت تماثيل فنان كثيرة في حياتي ..

- لكنه مُتَلَن ..

- لا أنكر هذا .. هل هو أثر إغريقي ؟

ابتسمت في خبث .. وعلى ضوء المصباح الخافت
أزاحت الملاءتين المغطيتين للتماثيلين وشرعت ترمق
تعبيرات وجهي ..

مجموعة من المرتفعات بها كهوف لا حصر لها .. أمشي
خلفهما فوق الأحجار متجهين إلى ذلك الكوخ الكليل الذي
آثار فضولي لحظة أن وصلت ..

أضاعت له (تابيثا) المصباح على حين شرع يفتش
مجموعة من المفاتيح أخرجها من جيبه .. وهمس لها
بشيء ما .. ثم مَذَّ يده يعالج القفل الصدى المثبت على الباب
حتى فتحه ، ودعاني للدخول ..

وطواط أو اثنان يتحركان على السقف الخشبي للكوخ
وقد أزعجهما الصوت .. لقد حان ميعاد الاستيقاظ أيها
الزميلان فالظلام سيحل تماماً بعد دقائق .. رائحة العطن
المميزة .. وثمة جو مشنوم يخيم على المكان .. بصوت
هامس قال (ميخائيل) وعيناه متسعتان :

- هذا هو كوخ الأستاذ (ستافروس نيندرينوس) ..

- سمعت هذا من قبل ..

- إنه المشرف على الحفريات في هذه الجزيرة ..

ورئيسي ..

- وهو لا يخاف الوطاويط أيضاً كما هو واضح ..

- كلا إنه ...

قالت (تابيثا) مقاطعة إياه في فتور :

- دعك منه يا (ميخائيل) .. إنه يمزح لا أكثر ..

كان التمثال الأول يمثل رجلاً في منتصف العمر يرتدى
 لتنسوه وله شارب كث ، وكان راكفاً على الأرض على
 ركبة واحدة يرمق في ذهول واضح شيئاً ما على
 الأرض ... تمثال بالحجم الطبيعي ومتقن إلى حد أنني كنت
 أرى - في الحجر - ملامح جلده وشعيرات ذقنه غير
 الخلق ..

التمثال الثاني كان يمثل عجوزاً يرتدى ثياب النوم ..
 وقد جثا هو الآخر على كلتي ركبتيه .. وحنى رأسه ليرمق
 في ذهول شيئاً ما على الأرض .. وكانت يده اليمنى
 مرفوعة قليلاً كأنها تزيح الستار عن شيء ما ...
 تمثالان رائعان .. مريعان ، ولقد بدا في ضوء
 المصباح المتراقص حولهما كأنما يتحركان .. وفي
 أعماقي تحرك ذلك الخوف القامض غير المبرر الذي يحس
 به الناس تجاه التماثيل ... ذلك الخوف الغريزي الذي
 ينتاب كل طفل رضيع تُقرب منه نمية ... إنها النظرة
 الثابتة الموحية بالموت والموحية بالحياة في نفس
 الوقت .. هي بيت القصيد ..
 لكن ثمة حقيقة مؤكدة ..
 إن هذه الملامح والثياب عصرية تماماً .. ولا تمت للفرن
 الإغريقي بصلة ..

★ ★ ★



لم يعلق (ميخائيل) .. وتقدمنا نحو قاعة فسيحة نوعاً تيد
 وكأنها كانت الصالة في هذا الكوخ ..

بطرف لسانها فى توتر .. حين بدأت أتذكر أسطورة قديمة
رهيبة سمعتها أو قرأتها يوماً ما .. هذان إذن ليسا
تمثالين ..

وانتصبت الشعيرات فى مؤخرة عنقى .. لقد فهمت ..
- هل .. هل تعنى .. أنهما رأيا ..
- نعم ..
- رأيا رأس ؟ ..
- نعم .. رأيا رأس (ميدوسا) ! ..

★ ★ ★



ابتلعت ريقى .. وقلت لـ (ميخائيل) هامسنا دون أن
أعرف لماذا أهمس :

- تماثيل متقنة .. لكنها ليست إغريقية أبداً ..
ابتسم فى مرارة :

- أصبت .. هى ليست تماثيل إغريقية ..
قالت (تابيثا) وهى تعيد تمثال الغار إلى مكانه :
- بل الأحرى أن تقول إنها إغريقية .. لكنها ليست
تماثيل !!

لم أفهم فحوى هذه العبارة الغريبة .. لذا واصلت
ملاحظتى :

- لقد اختار تلك النحات أوضاعاً عجيبة لتمثيله .. فأرأى
يتلوى ألماً ..

وراعياً يونانياً يجد شيئاً مفرغاً على الأرض ..
وعجوزاً يبدو وكأنه كان يبحث عن الخُف تحت الفراش
حين وجد الشيطان نفسه ..

- لقد قُلتها ... وجد الشيطان تحت فراشه ! ..
- لا أفهم ..

كان التمثالان يرسلان ظلالهما الغامضة الرهيبة على
جدران الكوخ .. وكانت عينا (ميخائيل كاراداكس)
الزرقاوان تلتصقان بالرعب .. و (تابيثا) تبلى شفيتها

٥ - أين هو ؟

كنا واقفين خارج الكوخ المشنوم فى ظلام الليل نلهث من الاتفعال ..

وكان الزوجان يتكلمان ويتعاملان كأنهما يعيشان هذا الموقف للمرة الأولى .. فقد استعدا الفزع الأول المبكر كاملاً ... أما أنا فكانت منات الأسئلة تصطرع فى ذهنى وكل منها يحاول السبق إلى طرف لسانى ، إلا أن تزاحمها جعلها تذوب حتى لم أعد أنكر شيئاً منها ! ..

إن معرفتى بـ (ميدوسا) سطحية جداً لا تتجاوز معرفة أى طبيب بها .. علامة (رأس ميدوسا) التى تميز تليف الكبد وارتفاع ضغط الوريد البوابى ، حيث تتسع الأوردة البديلة المحيطة بصرّة المريض معطية ذلك المنظر الشبيه برأس (ميدوسا) والشعابين تخرج منه ... وهو تشبيه (شاعرى) آخر من تلك التشبيهات التى تملأ كتب الطب واصطكها الأطباء الأوانثل .. مثل علامة زهور السوسن .. وعلامة شجرة الشربين المقلوبة وعلامة عاصفة الثلج .. الخ ...

بدأ (كاراداكيس) يحكى لى أسطورة (ميدوسا) الكابوسية بالتفصيل ... وقال لى إنه لو أن (ميدوسا) وجدت حقاً فإن موطنها - حتماً - كان فى إحدى هذه الجزر الصغيرة الواقعة ما بين (كريت) و (رودس) .. ثم إنه شرع يحكى لى ما حدث فى تلك الليلة الرهيبة .. ليلة الخامس عشر من أبريل عام ١٩٦٦ ...

- كان أستاذى (ستافروس ندرينوس) يواصل الحفر فى بعض المقابر الموجودة فى الكهوف المتاخمة للشاطئ .. حين ...

منفاً للملل لن أعيد كتابة هذه القصة ثانية .. فأنتم قرأتموها فى الفصل الثانى .. لكن اسمحو لى أنا أن أستمع إليها حيث إنها المرة الأولى لى كما تعلمون ! ..، والآن نأتى للجزء الجديد من القصة ..

- فى العاشرة مساءً سمعنا صرخة ... صرخة رهيبة لم نسمع مثلها من قبل ... وما أن خرجت من كوئى مع (تابيثا) حتى فهمت أنها صادرة من كوئى الأستاذ .. جرينا لهنالك .. وكان بعض العمال قد سبقونا لدخول الكوئى عن طريق كسر الباب ..

وفى غرفة نومه وجدنا المشهد العجيب .. فأران من الحجر أحدهما متهشم تماماً (كأنه سقط من الجدار) على الأرض ...، وجوار الفراش - منحنيًا وراكفاً

كانه يعاين شيئا ما .. كان تمثال الأستاذ الذي رأيته أنت ...
وكان هناك كيس من الخيش بجواره على الأرض ليس به
أى شيء !! ..

لقد تذكر العمال الأسطورة على الفور قبل أن أتذكرها
أنا ... أما أنا فقد فتشت الكوخ أولاً بحثاً عن الأستاذ
(الحقيقي) .. فلم أجده .. ثم هرعت إلى دفتر مذكراته ..
وكان مفتوحاً على آخر صفحة كان يكتبها لحظة أن حدث
ما حدث ..

كان يتحدث عن رأس (ميدوسا) .. وعن كارثة أمهيات
رئيس عماله (نيكوس) .. وعلى الفور أصدرت أوامري
بأن يستدعى بعضهم (ديميتريوس) رئيس شرطة الجزيرة
- والشرطي الوحيد بها كذلك - وحملنا المشاعل أنا
وأخرون إلى المقبرة المشنومة حيث وجدنا التمثال الآخر
راكفاً على ركبة واحدة كما رأيته أنت .. واضح أنه كان
يحفر حين خرج له الرأس من بين الصخور والأنثربة ..
والآن .. إن خيوط القصة تتضح أكثر .. لقد وجد
الأستاذ (ستافروس) ذلك الرأس وأخذه معه للكوخ ..
إلا أن الفئران أسقطت الشيء من كيسه تحت الفراش ..
وحين نهض ليعيده نسي واجب الحذر وأصابته اللعنة ..
لكن .. أين ذهب الرأس بعد هذا؟! ..

قلت لـ (ميخائيل) فى حيرة :
- ولكن لو افترضنا أن (ميدوسا) وجدت فعلاً .. فكيف
لم تتحلل بعد هذه القرون ..؟

قال وهو يفتح باب كوخنا :
- لقد فكرنا فى هذا ... إن هناك شيئاً ما فى جو هذه
الجزيرة أو تربتها يتحول الجثث إلى موميאות ... وليست
هذه أول مرة نجد فيها جثة شبه سليمة برغم أنها تعود لما
قبل عهد الميلاد .. لقد اعتدنا هذا هنا ..

قالت (تايينا) فى ضجر :
- ثم إن القصة كلها غريبة ولا تخضع للمنطق ..
دلفنا إلى الكوخ الذى بدا لى بهيجاً جداً ودافنا بعد
ما رأيناه فى الكوخ الآخر ... وجلسنا حول مائدة الطعام
نرمق لهيب المصباح المترأقص وكل منا شارد الذهن يفكر
فى جانب من هذه القصة ..

ابتسم (ميخائيل) فى رقة .. وقال :
- يؤسفنى أننا أقحمناك فى هذه القصة على الفور ..
لم يكذب ينقضى اليوم حتى عرفت ما نعرفه نحن !! ..
- البوليس ..
ماذا ..؟

- البوليس .. ماذا كان تعليقه على كل هذا ..؟

نظر إلى أنامله مفكراً .. ثم حنق في عيني :

- الواقع أن كلمة (بوليس) هي أكبر مما يجب ... فلا يوجد بهذه الجزيرة سوى (ديمثريوس بابادوبولوس) العجوز بربوه وشروذ ذهنه وبندقيته العتيقة ، وهو لم يحاول أن يبلغ الأمر لرؤسائه حتى لا يتهموه بالخرف .. بل ترك لنا المسؤولية كاملة ، ولهذا معنا مفاتيح الكوخ .. والتمثالان متروكان (لعهدتنا) إذا صح هذا التعبير ..
- وهل سمعتم صرخة العامل ...؟.. لم أعد أذكر اسمه ..

- (نيكوس) .. الواقع أن أحداً لم يسمعها - إن كان قد صرخ - سوى الأستاذ (ديندرينوس) .. كنت أنا و (تابيثا) في المقهى .. وكان العمال قد عادوا لديارهم منهكين .. ثم تبادل نظرة مع زوجته .. وقال لها شيئاً ما باليونانية ... ثم نظر لى بعينيه الزرقاوين الحساستين (فيما بعد أدركت أن عينيه هاتين شديدتا الحساسية .. وأن انعكاس رعبه فيهما كان يكفي لإصابة من ينظر اليهما بالذعر هو نفسه) ..

- والان أعتقد أنك ستسألني عن المشكلة ..

- هذا أكيد ..

- لقد وجد الأستاذ (ديمثريوس) رأس (ميدوسا) ودفع ثمن اكتشافه غالياً .. ليس هو فقط بل و (نيكوس) و(فاران) لم يستطيعا كبح شرايتهما .. والان كان ينبغي أن نجد الرأس تحت الفراش .. لكننا لم نجده ..

إن لهذا معنى واحداً .. هناك من دخل الكوخ في الدقائق التي تلت الصرخة ... وكان سريع البديهة بحيث فهم على الفور ما هنالك وكيف يحصل على الشيء ويخفيه قبل أن يأتي الآخرون ..

هناك شخص ما في هذه الجزيرة يملك رأس (ميدوسا) .. وبالطبع هو ليس عاشقاً للآثار اليونانية ولا من هواة الثعابين وليس عضواً في جمعية أصدقاء (برسيوس) ..

أنه شخص يعرف خطورة هذا الشيء .. ويعرف كيف يستفيد منه ..

* * *

الليل .. والظلام .. والأحلام العجيبة ..

من أعماق إمبراطورية الظلام (هينز) حيث يجلس (بلوتو) على عرشه يرمق الأرواح المعذبة .. و (شارون) مبعوث الجحيم يركب زورقه عبر مياه نهر (ستيكس) حاملاً دفعة أخرى من الموتى ..

(برسفونيه) (*) الحسناء تركض نحوى .. تتوسل

(*) تقول الأسطورة اليونانية إن (بلوتو) شعر بالملل .. فاختطف الحسناء (برسفونيه) لتكون زوجته في مملكته المظلمة (هينز) ، وهكذا حرمت الدنيا من الربيع الأبدى الذي كانت تبعته (برسفونيه) .. فيما عدا ثلاثة شهور (فصل الربيع) حين يسمح لها بإجازة تزور فيها أقاربها وصديقاتها في عالم النور ..

إلى أن أنقذها ... ولكن كيف !؟ .. كيف أواجه أنا وحدي سلطان (بلوتو) الرهيب !؟ الكلب يذوب .. وتشرق الشمس .. لكنى وحدي يا (برسفونيه) .. لقد أخذك لنفسه .. إن معنى سيوفاً كثيرة وبندقية (ليزر) لا أدرى كيف جاءت في جعبتي .. ولكنها صالحة .. أنا أحب الزيتون ، والأسماك الشهية التي لا أعرف اسمها .. و (تابيثا) سخرتها قاسية .. كانت تداعب (ماجى) فلا تستطيع الرذ وتحتشد الدموع في مقلتيها .. أما أنت يا (برسفونيه) .. كلا .. هذا ليس أنت !..!.. لا ..!.. ما هذه الثعابين في شعرك ولسانك المشقوق ؟.. أنت لست (برسفونيه) ..!.. أنت الجرجونة (ميدوسا) .. وأنا لم أعد (رفعت) .. أنا تمثال حجرى بصرخ ..

وتقلبت في الفراش غارقاً في العرق .. وابتلعت ريقى ... أنا أعرف أن هذا كابوس .. وأن سببه هو أحداث اليوم وإفراطى في العشاء ونومى على ظهري .. لكنى لا أستطيع التقلب .. أنا مجرد تمثال حجرى .. لو تقلبت لانتهى كل هذا .. والآن يجتمع الرئيس الأمريكى (جون كيندى) مع (تيتو) و (زيوس) و (أورفيوس) لمناقشة هذا السؤال الخطير : ما نوع الأسماك التى أكلناها فى العشاء ؟.. لم يحضر (خورشوف) بسبب الحرب الباردة .. إلا أن (برسفونيه) ستكون زوجتى .. وستنظف الغبار من على تمثالى كل يوم ... الآن أطمئن .. و ... ثم لاشء ..

★ ★ ★

فى الصباح شعرت وكأن قافلة من العربات الحربية بقيادة (رمسيس الثانى) قد مرت فوق جسدى .. وكان رأسى يترنح ، إلا أن ضوء الشمس البهيج أزال أشباح الليلة الماضية حتى أن ما قاله لى (ميخائيل) وما رأيته بدا لى مجرد كابوس آخر من كوابيس الليل . وجلست على مائدة الإفطار مع الزوجين ألتهم الزيتون والجبن وأرشف اللبن الطازج شاعراً أن اليوم سيكون حافلاً ..

- هل نمت جيداً ؟..!

سألتنى (تابيثا) فى خبث ، على أننى لمحت تحت عينيها انتفاخات تشى بأن ليلتها لم تكن أفضل .. طيلة الليل كان ثمة مؤتمر عجيب فى رأسى بين (جون كيندى) و (تيتو) و (زيوس) لمعرفة نوع السمك الذى أكلناه أمس .. والاتفاق على مهر (برسفونيه) زوجتى القادمة !

قالت (تابيثا) وهى تصب لى المزيد من اللبن :

- أنت أفضل حالاً منى ... على الأقل كانت كوابيسك ذات موضوع .. أما أنا ففضيت ليلتى فى خلط لا رأس له ولا ذيل .. اشرب ...

قلت - (ميخائيل) وأنا أرشف اللبن تاركاً شارباً أبيض على شفتى العليا :

- ثمة سؤال واحد يا (ميخائيل) بخصوص موضوعنا... إذا كان هناك من وجد الرأس قبلنا .. فكيف دخل الكوخ - وأنت تقول إن الرجال اضطروا لكسر الباب - وكيف خرج منه !!؟ ..

- إن هناك نافذة كبيرة منخفضة في غرفة نوم الأستاذ وكانت مفتوحة بسبب الحر الشديد ... ربما دخل وخرج منها ذلك الشخص ... وعلى كل حال كانت هناك آثار أقدام شديدة الوضوح جوار النافذة ..
قالت (تابيثا) :

- ثمة جواب آخر .. هو أن أول من وصل للمشهد من الرجال كان وحده لثوان ، لكنها كانت كافية أن يطوح الرأس من النافذة ويتظاهر بالذهول بعدها ... فيما بعد يعود ليمتدد الرأس ..

هذا صعب .. لا أصدق أن سرعة البديهة والانعكاس الشرطي يصلان لدى شخص ما إلى هذا الحد .. يدخل قبل الآخرين .. ويرى المشهد .. ويفهم .. يأخذ حذره .. ويقرر .. فيخلى الرأس ... هذا ليس بشريا ..
- على كل حال لا يوجد حل ثالث ..

قال (ميخائيل) وقد عادت عيناه الزرقاوان تبثان الهلع في روعي :

- ثمة حل رابع ..

- وما هو ..؟ ..

- أن تكون لهذه الرأس قدرة على التنقل ..! ..، أن تكون هي نفسها كيانا حيا مستقلا .. وهي الآن حرة في هذه الجزيرة !!



٦ - رعب فى الجزيرة ..

عوى الكلب مرتين مصدراً تلك الزمجرة المنذرة بالويل .. ثم انقض على دون سابق إنذار بمجرد أن أفلتت من قبضة (تاييتا) على المقود .. شرعت أنظاھر بالرزاة والوقار مانعا نفسى من البكاء كالاطفال أو الفرار كالآرانب ، لأنى أعرف أن هذا سيزيد الأمور سوءا .. شرع يتشمم بنظولنى وجيوب سترتى .. ثم بدأ يدرك أننى لست بالخطر الداھم على صاحبيه .. وبدأ تدريجيا يتناسى وجودى كلية ..

- (كوسناس) !.. تعال هنا !..

صاحت به (تاييتا) بلهجة صارمة .. فتركنى - أخيرا - وعاد لها فى تودة .. غريب أمر هذا الكلب الذى يجيد الإنجليزية .. إلا أننى كنتم - بصعوبة - ما يعتمل فى رأسى من خواطر حول المتعة التى يحصل عليها المرء من تربية هذا البھر ..

- ماذا بك يا (رفعت) ؟ .. كنت أحسبك رفيقا بالحيوانات الضعيفة ..

- نعم .. الحيوانات الضعيفة .. الحيوانات التى قد تموت جوعا لو لم نرفق بها .. أما هذا الوحش فئن يجوع أبدا .. إنه سيفترس أول إنسان يكون أمامه عند شعوره بأولى علامات الجوع !.. لا مشكلة إذن ..

ثم انقض على دون سابق إنذار بمجرد أن أفلتت من قبضة (تاييتا) على المقود ..

قالت فى دلال ممزوج بالعقاب وهى تدعك أنسى
(الببر) :

- لا تقل هذا عن عزيزى (كوستاس) .. إنه رابطتى
الوحيدة (باسكتلندا) ..
وأضافت مبتسمة :

- كان اسمه (ماكسل) .. وكان الكلب الأثير عند أبى ..
- لهذا يفهم الإنجليزية إذن ! ..
وتأملت الكلب قليلاً .. ثم سألتها :
- لم أره أمس ..

- لم نرد أن نضايك .. لذا حبسناه فى بيته ..
هنا خطرت لى فكرة ..، لو أن هذا الوحش يجيد ربح
ما تجيده الكلاب التى فى حجمه وتحترم نفسها .. فهو قادر
إذن على تقفى الأثر بالشم ..، لو أنه شم الكيس الخيشى
الذى كانت به رأس (ميدوسا) فهو قادر على مسح
الجزيرة كلها والعثور عليه ..
إنها الطريقة الوحيدة التى أعرفها للعثور على رأس
مختبئ ..

قلت لها فكرتى .. كنا واقفين على الشاطئ نرمى
أمواج بحر (إبجه) المتسابقة لترتمى عند أقدامنا
الحافية ..، تفكرت حيناً .. ثم بدت عليها علامات السرور ..
إنها فكرة لا بأس بها حقاً .. ولئن كان ذلك الشيء مختلفياً

فى كهف .. أو فى بيت .. أو فى باطن الأرض فهى تعرف
أن (كوستاس) العزيز سيجده ..، ولكن كيف لم تخطر لك
هذه الفكرة البديهية من قبل يا (تابيثا) ؟ ..

- لأننا أغبياء يا عزيزى (رفعت) .. ولأنك عبقرى ..
قالتها فى سخرية واضحة ..، لو أن أية امرأة أخرى فى
العالم قالت لى هذه العبارة لامتلأت زهواً .. لكنى تعلمت
مع (تابيثا) أن أكون حذراً ..

وعلى مرمى البصر كانت سفن الصيد العتيقة متراسة
فوق رمال الشاطئ لتجف ، ومجموعة من الأطفال
يلعبون ..، وصياد عجوز يدخن (النارجيلة) التركية
الشهيرة ..، وبعض الشبان يعزفون على آلة وترية ما ،
لا أعرفها .. سألتها :

- هل هذه هى (البوزوكى) ؟
- كلا .. هذه هى (السانتورى) .. ألم تقرأ تحفة
(نيكوس كازندزاكيس) (زوريا اليونانى) ؟ ..
- فى الواقع .. نعم .. لم أقرأها ..
قالت وعيناها تضيقان انبهازا :

- إنها آلة رائعة .. وترغحك إذا ما حاولت التعبير عن
نغماتها أن ترقص رقصاً يونانياً موقفاً ..، إن كل آلة
موسيقية عند كل شعب ترغحك على أن ترقص كأهلها ..

وهكذا شرعنا ننفذ خطتنا الصغيرة .. عدنا إلى الكوخ
وجعلنا الكلب يتشمم كيس الخيش الذي وجدوه جوار
تمثال الأستاذ .. ثم أمسك (ميخائيل) بالمقود وشرع يبحث
السير خلف الكلب المتحمس .. كان المساء قد بدأ يدنو مرة
أخرى ..

خرجنا من الكوخ وبدأنا السير عبر رمال الشاطئ وسظ
النظرات الفضولية التي تقول بصراحة : ماذا هذا هؤلاء
المجانين؟! .. وبدأ الكلب يتحفز .. ثم دار حول مجموعة
الكهوف المتاخمة للشاطئ .. واختار أحدها ودخل ..

قربت (تابيثا) الكيس من أنفه بيد ترتجف لتتأكد من أن
ذاكرته لم تضعف .. إلا أنه واصل السير بثقة إلى ما يشبه
الفتحة في جدار الكهف .. ودخل .. ونحن خلفه .. لكن
الظلام كان دامسًا بالداخل ..

أشعلت قداحتي فأزالت العتمة قليلاً .. وعلى ضوءها
المتراقص رأينا الكلب يحفر في رقعة ما من الأرض وهو
يزوم بتلك الطريقة المفزعة .. وكانت أذناه متصلبتين ..
وشعر عنقه منتصبًا .. وذيله منتفخًا .. لقد أحسن بها ..!

قرب (ميخائيل) يده يحاول جذب المقود إلا أن الكلب
كشر عن أنيابه وأصدر زمجرة منكرة فأبعد هذا يده
فورًا .. همست (تابيثا) في رهبة :

الطبول تجعلك ترقص كالأفارقة .. الناي والطبل يجعلتك
ترقص رقصًا مصريًا .. الجيتار يجعلك ترقص
كالأسبان .. لاحيلة لك في ذلك لأن تكوين الآلة يسيطر
على جهازك الحركي ويطبعه بطابعها ..

كنت أتأمل في عبارتها حين وصل (ميخائيل) حاملاً
سلة من القش اشتراها من بعض الصيادين وكانت مليئة
بالأسماك .. ألقى بسمكة للوحش المدلل التهمها وهي في
الهواء بعد .. وفي فتور سألنا :

- تتحدثان عن (ميدوسا) ..؟

- كلا .. بل عن الآلات الوترية في الحضارة
الإغريقية ..!

قال كلمة يونانية ما ، واضح أنها تعادل كلمة (إحنا في
إيه والا إيه ؟) في العربية ، ثم جلس على الرمال .. وشرع
ينندن لحنا حزينا .. بدأت (تابيثا) تفتح مدفعها الرشاش
عليه مطلقه سيلًا من العبارات اليونانية يتخللها اسمي
واسم كلبها العزيز - ولا فخر - مما أكد لي أنها تخبره
بفكرتي ..

نظر لي في فهم .. وابتسم مؤيدًا .. ثم اقترح أن ننفذها
هذا المساء حين يتكفل الظلام باراحتنا من الأسئلة ..

★ ★ ★

لا تحاول يا (ميخائيل) ...!.. سيضعك .. إنه ليس في
حالة طبيعية ..!

رهيب هو هذا المشهد .. والنظرة الزائفة المبهورة في
عيني الكلب .. و ... وهنا تداعى لخاطري سؤال :

- هل هذا هو الكهف حيث .. حيث وقع الحادث ؟
- نعم هو .. ألم تفهم بعد !؟

- لكن هذا يعني أنه يشم أثر الرأس في الأرض ..
وليس الرأس نفسه ..

- لا أعتقد .. لا بد أن الرائحة قد زالت الآن .. ولن تكون
أقوى من الرائحة العالقة بالكيمس نفسه ..

- وهذا يعني ..

قال (ميخائيل) وهو يظن لهيب القداحة بأنفاسه :

- يعني أن بقية (الشيء) موجودة هنا .. أو أن هناك
رأسنا آخر تحت الأحجار .. أو أن هذه المقبرة خاصة
بشقيقتي (ميدوسا) .. لا أدري حقًا لكن الشيء المؤكد هو
أن الوقت قد حان كي نغلق عيوننا !..

وهكذا تركنا الكلب حيث هو وهرعنا متخبطين إلى
كوخنا نبغي حماية لعيوننا .. أتى (ميخائيل) بعصابتين
للأعين من التي يضعها نوو العيون الجمناسة للضوء عند

النوم ؛ أما أنا فوجدت قطعيتين من القطن صالحتين لأن
أنسهما بين جفوني وزجاج النظارة .. ثم انطلقنا كالقذائف
نبغي الوصول للكهف قبل أن نسمع ..

العواء ..!.. العواء المريع المتحشرج الذي كنا نخشى
أن نسمعه ... جرينا للكهف وصوت (تابيثا) تنهته بالبكاء
وهي تجرى جوارى وتردد مرارًا لا حصر لها :

- ما كان يجب أن ... ما كان يجب أن

وهنا - أمام الكهف - وجدنا حشدًا من السكان يقفون
واجمين .. لم يجرؤ أحدهم على الدخول في وكر الشيطان
هذا ... شققنا طريقنا .. وارتدى الزوجان القناعين ، أما أنا
فحشرت قطعتي القطن خلف الزجاج حتى لم أعد أرى أي
شيء .. لربما كان إغماض عيوننا كافيًا لكن أحدًا لا يضمن
لحظة شروذ ذهن أو انعكاس لا إرادي يرغمنا على
فتحها ..

وهنا بدأ سباق العميان ..

وسط صخور الكهف نزحف ونحبو نحو المكان الذي
سجلته ذاكرتنا ... وسمعت صوت (تابيثا) الملتاع
بصرخ :

- إنه هنا !.. لقد وجدته !..

مددت يدي تجاه صوتها فاصطدمت بشيء أملس وبارد ..
حجر .. تحسسته في رزائة .. الفم والأنياب والقدمين .. إنه
تمثال كلب ..! لا شك في ذلك ..

- يا عزيزي (كوستاس) .. أنا السبب .. أنا .. شرعت
تنشج في الظلام .. أكاد أراها وهي تحتضن التمثال المرعب
محيطة عنقه بذراعها ومسددة رأسها على كتفه .. لم يعد
منها نفع بعد الآن .. أما (ميخائيل) فلم يكن عنده وقت لهذا
السخف .. إذ سمعت صوته في الظلام بهمس :
- ها هو ذا الرأس يا (رفعت) .. لقد وجدته ..!
مد يدك نحوي ..

مددت يدي فاصطدمت بفتحة .. فتحة أنف .. تحتها
شارب .. و ..
- ليس هنا أيها الأحمق ..! هذا أنفي ..! .. أنزل يدك
قليلاً .. لأسفل .. هكذا .. والآن ها هو ذا ..! .. هل تحسن
به ..!؟

في الظلام أشعر به .. مستجمعا كل حاسة (التقدير
الفراغى) عندي أتحمسه .. الأنف المجدوع .. الفم ذا
الأنياب الحادة .. ثم .. عشرات الأشياء الطويلة الملتفة
حول الرأس ولا يمكن أن تكون سوى ثعابين ..
إنه هو ..

★ ★ ★

فتحت له الكيس فرفع الشيء وألقاه فيه وأحكمتنا
ربطه .. كانت رائحة الشيء قوية وأعتقد أن كل عطور
العالم لم تكن قادرة على إزالتها من أيدينا ..

والآن يمكننا أن نخرج .. لم نزل العصابات من على
أعيننا فمن أدرانا أننا لن نجد أمامنا رأساً آخر خارجاً من
التربة ..؟! .. حملت الكيس في يدي .. وسمعت صوت
ضجة فهمت منها أنهما يتعاونان على إخراج تمثال الكلب
من المنقبة ..

والآن نشم هواء المساء المالح فنزيل عصاباتنا ..
أهالي الجزيرة يحيطون بنا يرمقوننا في وجوم ..
وعيونهم متصلة على الكيس الذي أحمله وعلى تمثال
الكلب الثقيل الذي تعاون الزوجان على حمله .. تمثال لكلب
يحفر في الأرض ويصرخ .. هذا الصمت الثقيل ينذر
بشيء ما ..

بدأنا نشق طريقنا بين صفوفهم .. وفجأة برزت لنا
امرأة عملاقة ترندي المواد وشرعت تطلق علينا سيلاً من
الكلمات اليونانية التي لا تمت للمجاملات بصلة حتماً ..
قالت لى (تايبثا) وهي تنشق لمنع دموعها من أن تسيل
من فتحتي أنفها :

- إنها (ميليسا) .. زوجة (نيكوس) ..

- نعم .. نعم أرملة ذلك العامل .. هذا واضح ..

- إنها تقول إن الشوم حل بالجزيرة منذ قديم الشياطين .. شيطان المدينة والمرأة الأجنبية التي ترتدى البنطلون .. و ... هناك بعض الشتائم طبعًا لكنى لن أترجمها ، وتقول إن الشيطان الأصلع ذا النظارة قد جلب المزيد من الشوم !!

- لا بد أنها تتحدث عنى

كانت المرأة صارمة الوجه .. وكان العرق واللعب يتناثران من فمها وهي تشير للكيس ثم للرجال .. وتقول كلامًا كثيرًا ..

- إنها تقول إن (الشيء) سيجلب الشوم علينا وعلى أولادنا .. وأن الرجال لو كانوا رجالًا حقًا لرموه في البحر للأسماك ورمونا نحن أيضًا ..

وتواصل المرأة الصراخ في حين جفت نموع (تابيثا) تمامًا والتمعت نظرة التحدى في عينيها .. وواصلت الترجمة :

- إنها تقول : فليمزق ألف مخلب أحشاء من بذر البذرة التي منها نبتت الشجرة التي صنع كوخنا من خشبها ..! شاعرية جدًا هذه اللغة اليونانية .. نكرونى أن أتعلمها فيما بعد حين تتحسن الظروف .. أما الآن فالموقف لا يثير الطمأنينة أبدًا ..

وهنا ثارت (تابيثا) وصاحت في المرأة مطلقة بعض القذائف اليونانية شديدة الانفجار .. ردت المرأة بقنبلتين هيدروجينيتين .. وكانت (تابيثا) على وشك استعمال قنابل (النيوترون) حين اشتبكت معها المرأة بالضرب واللطم والصفعات والعض .. هل شاهدت في حياتك صراع قطين؟ .. هل تستطيع - لو جرؤت - أن تفصلهما؟! .. هذا هو ما حدث وقتها ... (ميخائيل) و (أنا) من ناحية والرجال - الذين كانوا متعقلين غير ميالين للعنف - من ناحية أخرى .. الكل يحاول إنهاء صراع الديناصورين هذا ..

وقبل أن أفهم ما حدث اندفعت قبضة المرأة تلكنى في أنفى ، وانتزعت الكيس الخيشى من يدي .. وهى تسبى بما لا أفهمه ..

لكن الكيس كان مهترنا .. مهترنا إلى درجة أنه لم يتحمل هذا الجذب !!

★ ★ ★

[ترى هل تألموا ؟ .. إذا لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا ؟!]

★ ★ ★

[إنها إغريقية حقا .. لكنها ليست تماثيل !]

★ ★ ★

تمزق الكيس .. ولمحت بطرف عيني شيئا رماديا بشعا يبرز منه حيث سقط على الرمال ..

وكان رد فعل (ميخائيل) هو الأسرع إذ صاح باليونانية مننزا .. ثم مزق أزرار قميصه وخلعه وألقاه - وهو يغمض عينيه - على الشيء ... ولفه فى القميص بإحكام وأمسك به ..

أما الرجال الذين انحبست أنفاسهم للحظات فقد تنفسوا الصعداء وعادوا يواصلون تخلص المراتين ... وهنا برز عجوز له شارب كث أشيب .. وأسنان نخرة .. يحمل بندقية قديمة جدا من القرن الماضى ، وكان يرتدى مثلهم تماما .. إلا أن طريقته المتمرسه فى فض الشغب .. واللهجة الامرة التى جعلهم يتفرقون بها جعلتني أدرك أنه هو رجل الشرطة فى هذه الجزيرة (لأنكر ماذا كان اسمه

بالضبط فمئذ وصلت اليونان وأنا غارق فى دوامة لا تنتهى من حروف الواو والمين) ..

- (ديمثريوس باباندولوس) ! ..

قالتها المرأة وهى تطلق سراح (تابيثا) .. إذن كان هذا هو اسمه .. إنها تشكو له شيئا ما ، وتطالبه بأن يتخذ إجراء حاسما ، إلا أنه لم يبد مهتما بالأمر .. بل ولم يبد على استعداد لسماع أى شيء ..

وتفرق الواقفون على حين أخذت المرأة تلوح بقبضتها مهتدة ..

قال الشرطى شيئا ما لـ (ميخائيل) ، ثم نظر لى فى ريبة .. واتصرف ..

★ ★ ★

كان تمثال الكلب قد تهشم حين هوى على الأرض .. لهذا حملت (تابيثا) رأس التمثال ، وعدنا لكوخنا واجمين .. أنفى ينزف .. ووجه (تابيثا) ملىء بالخمشات .. و(ميخائيل) عارى الجذع يقبض على قميصه الملتف حول الشيء ... إنها لحظات كئيبة لكننا على الأقل سنعرف ...

سنعرف ..

★ ★ ★



ثم هرعرت خلف الصندوق بحيث لا ترى ما بداخله .. وفتحته أمام عدسة الكاميرا ..

وفي الكوخ وضعنا الكيس الكتيب على منضدة .. ثم
أحضرت (تابيثا) صندوقاً خشبياً له مفصلان يتحان فتحه
وغلقه .. وله قفل محكم ، ثم إنها أمرغت ما في القميص
وبقايا الكيس داخل الصندوق وهي تحول وجهها تجاه
الحائط .. ثم خلعت ساعتها ..

والآن حان وقت البحث العلمي ..

أحضرت (كاميرا) ذات فلاش وثبتها على حامل... ثم
أنها أحكمت تصويبها على الجانب الذي يُفتح من
الصندوق .. وأدارت مفتاح التوقيت الذي يتيح التقاط
صورة بعد لحظات ، ثم هرعرت خلف الصندوق بحيث
لا ترى ما بداخله .. وفتحته أمام عدسة الكاميرا .. و .. بعد
لحظات .. كليك !..! والآن تغلق الصندوق وتهرع للكاميرا
لتستخرج الفيلم ... وتقول :

- إن عندي هنا محاليل التحميص كلها .. انتظراتي ..
وكورت الفيلم في قبضتها واندفعت إلى غرفتها ..

★ ★ ★

كنت جالسا أنا و (ميخائيل) فقط .. لكن شعورا مروعا
كان يدهمني أننا أربعة ..! الحضور القوي الذي لا يُنكر
لـ (ميدوسا) في صندوقها الخشبي .. ولرأس الكلب
الصارخة حيث وضعتها (تابيثا) على المنضدة ... قال
(ميخائيل) في شرود :

- ما رأيك في كل هذا ؟..

نظرت له .. ومددت يدي أشعل سيجارة .. كان منهما
فلم يستطع حتى أن يعترض :

- لا أصدق حرفاً !..

فلقتها ونفثت الدخان ... وأردفت أمام عينيه
المندهشتين :

- إن كل القصة مبنية على أساس وثني هو أن
(زيوس) كان له وجود .. وكلاهما يعرف أنه لا (زيوس) ..
ومادام لا (زيوس) فلا (ميدوسا) .. هذا حتمي ومنطقي
جداً ..

- أنا لا أتحدث عن (زيوس) .. لربما كان هناك كائن
حقيقي اسمه (ميدوسا) له القدرة على تحويل الناس
لحجر ، وحاول الكهماء تفسير وجوده على هذا البصيص
الوثني .. هذا هو ما أعنيه ..

- ومتى وجد كائن يستطيع تحويل الناس لحجر ؟..!
- لماذا لا نفترض أن هناك إشعاعات معينة محولة
للمادة تخرج من عينيه .. مثل عمل (المدافع النووية)
التي تحول عنصرًا لآخر بكثف البروتونات .. هل تنكر
عمل (رونر فورد) في هذا الصدد ؟..

ضحكت في سخرية أثارت حنقه حتى سألتني في ضيق
عما يضحكني ، فقلت :

- إنها تلك المحاولة المفتحة لإكساب الخرافات ثوباً
علمياً ... محاولة تفسير الطالع - مثلاً - باستخدام قوانين
(نيوتن) .. أنا أو من بالسحر لأن الأديان السماوية أجمعت
على وجوده ، لكنني لا أو من برأس (ميدوسا) لأنه يناقض
ما أعرفه دينياً وعلمياً .. ولم أسمع عن كائن حتى تصل
عيناه (كمدفع نووي) ..

- وكل هذا الذي يحدث يحدث ؟..

فكرت حيناً .. ثم قلت شارداً للذهن :

- لا أعرف .. هناك تفسير ما يمكن ابتلاعه .. لكن
لا تحدثني أبداً عن لغة (زيوس) ثم تحاول أن تبني على
ذلك صرخاً محكماً من المنطق ..
- على كل حال سترينا الصورة كنه هذا الشيء ..

★ ★ ★

عادت (تابيثا) من غرفة التحميص ممسكة بصورة
لم تزل مبتلة بين أناملها ..
- ما هي الأخبار ؟..
قالت وهي تبعد الصورة عن متناول يدي وترتدي
ساعتها وخاتمها :

- لا أعرف .. بمجرد أن بدأت النسخة الإيجابية
تتضح لي ؛ كفلت عن النظر .. لن أجازف ..
قلت لها مبتسماً :

- ولماذا ؟ .. هي مجرد صورة .. إن صورة باكتريا
الطاعون لا تسبب الطاعون ..

- لا أجزم بشيء ..، إن الأمر كله خارجي للطبيعة ،
ولربما كانت هناك إشعاعات ما يتشربها الفيلم وتعكسها
الصورة ..

هذا حق ..، والواقع أن حذرنا قدرنا لي ..، والآن أعيد
خواطرى القديمة عن (فلسفة الخوف) .. برغم ثقتي في أن
الأمر كله خرافة .. وبرغم ما قلته لـ (ميخائيل) منذ دقائق
وكل عباراتي المنطقية المحكمة فإنني لن أجرؤ أبداً على
إخراج هذا الشيء من صندوقه ولا على مجرد النظر
لصورته !! .. إنني لا أؤمن بتأنا بوجود مصاصي دماء لكني
- حتى هذه اللحظة - أجدب الملاءة حتى قمة رأسي لأحجب
أوردة عنقي عند النوم .. أعترف بهذا .. الخوف غير
التمبرر .. الذعر .. الهلع الحيواني .. هذا هو ما لم أفهمه
بعد ..

والآن تتجه (تابيثا) إلى إحدى غرف الكوخ ، وتعود
حاملة قفصاً فيه عصفور زينة رقيق .. وتحمل الصورة
وتقربها من ذلك المسجين .. فيرمقها في براءة ولا يتحول
إلى صخر ..

وهكذا كانت تلك هي الإشارة لنا كي ننفض على
الصورة كي نشاهد - لأول مرة - كيف يبدو هذا الكابوس ..

★ ★ ★

كانت الصورة بالأبيض والأسود تمثل صندوقاً تمسك
به يدا امرأة ترتدى خاتماً (تابيثا) طبعا ، ويدخل الصندوق
كان ثمة وجه .. أشبع وجه رأيت في حياتي حتى أنه
ليشابه وجه فرد ..، الأنياب تبرز من شفتيه .. والتجاعيد
تملأ ما حول شفتيه وركنى عينيه .. والعينان جاحظتان
شاخصتان ..

أما الشعر فلم يكن شعرا .. كانت منات الأفاعي تتلف
حول نفسها وتتحدر على الجبين ..، أما الجلد فكان مهترنا
متسلاً ..

قلت مبتغماً ريقى :

- من المؤكد أن الكثيرين من الخطأ لم يتقدموا لطلب
يدها ..!

- ماذا تقول ..؟

- لا عليك يا (ميخائيل) .. لقد كنت أمزح ..

كان الزوجان ينظران للصورة مسحورين وقد فقدوا
النطق تقريباً .. إن هذا الذي نراه الآن يتحدى كل منطق
لدينا ..، منذ سنوات عشر وقفت أمام مومياء (دراكويلا)
ذات الأنياب شاعراً بنفس الحيرة وعدم الفهم ..، وتبدل

فكرى على هذا النحو حين أخرج وحش (لوخ نس) عنقه الطويل من تحت الماء... وارتجت ساقاي هكذا حين سقطت تحت المذعوب فوق التلوج وشعر صدره الكث يلتصق بعمى وصوت خواره بصم أنفى.. لكنى - ودلتما - كنت أجد تفسيراً أرتاح إليه ..
فما هو تفسير هذا الذى أراه الآن !!؟

قالت (تابيثا) وهى ترتجف ونحن جالسون فى المطبخ نتبادل النظرات الحائرة :
- ترى هل كان الرأس الأول بهذه البشاعة ؟
- رأس أول ..؟

- بالطبع ... كان هناك رأس وجده الأستاذ ومترق ..
الآن لابد أن هذا رأس ثان !! ..
هذا منطقي .. إذ كيف عاد الرأس لمقبرته مرة أخرى ..؟! .. فنترتب أفكارنا يا رفاق ودعونا لا نلقد صوابنا .. ما هى الاحتمالات !!؟

الاحتمال الأول - تقول (تابيثا) - أن هذه هى جزيرة (الجرجونات الثالث) نفسها .. وبالتالي يكون هناك رأسان حقاً ... وبالتالي فإن هذين الرأسين يخصان شقيقتى (ميدوسا) اللتين قتلتهما شخص ما فى زمن لاحق لزمن الأسطورة .. ومعنى هذا أن رأس (ميدوسا) نفسها ما زال مفقوداً ..

الاحتمال الثانى - يقول (ميخائيل) - أن هذه هى جزيرة (كاسيوبويا) وأن المقبرة هى مقبرة (برسيوس) نفسه حيث دفنوا الرأس معه .. وبالتالي فإن هناك احتمالين :
١ - أن يكون سارق الرأس قد أعاده لهذه الحفرة علماً منه بخطره .. وهذا يضع أرملة (نيكوس) على رأس قائمة المشتبه فيهم ..

٢ - أن يكون الرأس مسحوراً وله قدرة ذاتية على التحرك ..!

الاحتمال الثالث - أقول أنا - أن تكون كل هذه العوبة منبيرة من الأستاذ مع رئيس عماله طلباً للشهرة خاصة وأنتما تقولان إنه عاش مضموراً ..

هل يوجد احتمال رابع ..؟! .. لم يبد على أحدنا أنه يملك ما يضيفه ..

إننا نملك عدة محاور نتحرك عليها ..
أولاً : عليك يا (ميخائيل) أن تتفحص المقبرة بدقة متناهية أملاً فى أن تجد ما يدل على صاحبها ..

- إنها مهمة صعبة .. فالفراغنة كانوا يحبون الثروة ويكتبون كل شيء عن صاحب القبر على الجدران ؛ أما الإغريق فكانوا يكتفون ببعض الرسوم غالباً ..

ثانياً : علينا أن نتقصى أمر كل من دخل الكوخ بعد أن صرخ الأستاذ فى تلك الليلة .. من دخل بعد من .. وماذا فعل ..

ثالثاً: يجب أن نسلم الرأس للسلطات ... إن العلم
- بصرامته القاسية - هو الذى سيثبت أو ينفي حقيقة هذا
الشيء ..

رابعاً: يجب أن نواصل الحفر فى التربة .. لربما وجدنا
جسدى الجرجونتين الباقيتين .. أو سيف (برسيوس)
أو أى شيء من هذا الهراء يساعدنا على الفهم ..
- سنعتمد على أنفسنا فى هذا الجزء لأن هؤلاء العمال
سيذبحوننا قبل أن نطلب منهم دخول المقبرة ..
خامساً: يجب إحكام غلق هذا الصندوق وإخفائه لأن
محاولات عديدة ستتم لسرقته والتخلص منه .. أو ربما
لسرقته والاستفادة منه ... إن من يملك رأس (ميدوسا)
يمكنه أن يواجه جيشاً دون خوف ... يقتحم البنوك ..
يواجه الشرطة .. عالماً أن من يفتح عينيه ليراه سيتحول
إلى حجر ..!

والآن - وقد رتبنا خواطرننا - حان وقت النوم ..
المشكلة هى أن الرأس يجب أن يبيت فى غرفة أحدنا
للتأكد من أنه لن يُسرق ... نظرت لـ (ميخائيل) فى
ترقب .. فصاح فى جزع:

- لا يا سيدي ...! لا تنظر إلى ..

- ولم لا ..؟

- لأننى أومن أن هذا الرأس يتحرك فلن أخذه لينام

معى!

- ولكن ..

قالت (تابيثا) وقد التمعت نظرة التحدى الساخرة
فى عينيها:

- ولماذا لا تأخذه أنت؟.. ألمت ترى الأمر كله

ألعوبة؟! ..

- بلى .. ولد .. ولكن ..

- حسن .. أنت شجاع حقاً يا (رفعت)، أما أنا وزوجى

فأاران مذعوران ..

ل .. لا .. أ ... أعنى ..

- إن قضى الأمر .. عمت مساءً .. ولا تنس مسح الدم

من تحت أنفك ..!

وهكذا وجدت نفسى داخلاً حجرتى حاملاً الصندوق
الخشبي يترجرج ما به من حمل ...!.. مشكلتى هى عدم
قدرتى على أن أقول لا بصوت مسموع .. ستكون ليلة
طويلة حقاً ...!!

٨ - ليلة الرعب ..

عقارب الساعة تبقى ..

الظلام الدامس يغمر الحجرة ... والصندوق الكئيب ملتفًا بالسواد يطفو فوق منضدة في ركن المكان ... المشكلة هي أن هناك ضوءًا خافتًا لأخرى مصدره يضيء الغرفة باعًا آلاف الظلال وآلاف الاحتمالات ... هو ليس ذلك الظلام الأملس المسطح الذي أرتاح إليه ..

[هناك شخص في هذه الجزيرة يملك رأس (ميدوسا)] ..

[ترى هل تألموا؟ .. إذا لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا؟] ..

[لا تحاول يا (ميخائيل) .. سيضعك .. إنه ليس في حالة طبيعية] ..

[الشيطان ذو النظارة قد جلب المزيد من النحس ..] ..

هل حدث كل هذا في يوم واحد؟! .. كأنه دهر ... أنا مرهق .. لكنني - كما تقول القصيدة الإنجليزية - مازالت لدي أميال يجب أن أقطعها ومواعيد يجب أن أحفظها قبل أن أنام ..

لم الخوف؟ .. ألسنت وانثقا من منطقك العلمي؟ .. لم لا تنهض وتضيء نور المصباح وتفتح الصندوق لتتأمل هذه المسخافة عن كذب؟! .. لكنك جبان ياد .. (رفعت) .. جبان ... كنت دائمًا تعزى نفسك عن ضعفك بامتلاكك العقل الراجح والشجاعة .. والآن ها هو ذا الاختبار الأعظم لعقلك وشجاعتك ... افتح الصندوق ما نمت لا تؤمن بالأسطورة .. هيا ..!

★ ★ ★

كان العرق البارد ينحدر على جبينى .. والصراع في روحي قد بلغ الذروة .. نهضت في تتأقل من الفراش .. واتجهت إلى مصباح الكيروسين وأشعلته ... ثم اتجهت نحو الصندوق .. قلبي يخفق كالطبل في أنفى .. ونمى بغور .. تحركى يا يدي .. أنت ملكى ويجب أن تمتلئ لإرانتى ..

لا تفعل! .. بربك لا تفعل! ..!

حاستى السامسة تصرخ مهيبه بي أن أتراجع .. يدي تتردد .. ثم تتقدم .. أرجوك!! ..

هكذا .. أعالج القفل ... الباب الخشبي .. لم تزل هناك فرصة للتراجع .. لكنى لن أعود أدراجى أبداً .. هيا يا يدي ..



لم يكن هناك رأس .. وللمزيد من الدقة كان هناك رأس لكنه
ليس رأس (ميدوسا) ..

وانفتح الصندوق ..

ويبد ترتجف .. رفعت المصباح ليضاء ما بداخله ..

★ ★ ★

لم يكن هناك شيء ..!

بمعنى أنق .. لم يكن هناك رأس ... وللمزيد من الدقة
كان هناك رأس لكنه ليس رأس (ميدوسا) ... بل رأس
الكلب الحجرية التي عادت بها (تابيثا) من المقبرة ..!! ..
أين ذهب هذا الشيء ..؟

وغلى الدم في عروقي .. إن هناك من يحاول أن يجعلني
أحمق .. هذان الزوجان اللعينان يمارسان العوبة ما ..
ولكن متى وكيف ..؟ لقد ظل الصندوق أمامي طيلة
الأمسية .. لم يدخله شيء ولم يخرج منه شيء .. لقد دخلنا
المطبخ وتركناه وراعنا دقائق .. لكن كلي الزوجين لم يغب
عن بصرى ثانية واحدة ..

والآن - وأنا واقف أرمق الصندوق في غباء - بدأ
التفسير الوحيد لكل هذا يتراءى لي بوضوح تام .. (برغم
أن كل خلية في عقلي ترفضه) .

هذا الرأس يملك القدرة الذاتية على الحركة !

★ ★ ★

- بلى... لقد فتحت الصندوق فلم أجد سوى رأس
الكلب الحجرى ..

نظر لها زوجها نظرة معناها (ألم أقل لك ؟) ... ثم شرع
بممارسة ذلك العمل الأحمق الذى لا بد أن يمارسه .. تفتيش
الكوخ دون جدوى طبعا .. لا دخلاء .. لا نوافذ مفتوحة ..
لا رعوس ..

لقد طار الشيء والله - تعالى - يعلم أين وكيف اختفى ..
- والآن .. ؟

- أعتقد أن من الأفضل أن نواصل النوم .. لا يوجد
ما يمكن عمله فى هذا الظلام .. ثم إن البحث عن هذا الشيء
خطر جدا .. إن العثور عليه فجأة سيتسبب فى مأساة ..
ولربما كان من الحكمة إطفاء هذا المصباح ..

ارتجفت (تايبثا) .. وضوء المصباح يعكس ظلال
وجنتيها على عينيها مما أكسبها مظهرا شيطانيا ..
وهمست :

- بالفعل .. إن النوم هو السبيل الوحيد المؤكد لإغلاق
أعيننا ..

ودون أى اتفاق ودون أية كلمة أخرى تصرفنا بالطريقة
الوحيدة المثالية لهذه الظروف .. حمل كل منا مرتبته إلى
الصالة وكومنا المراتب فى دائرة .. إن الفكرة التى دارت
فى أذهاننا فى نفس اللحظة هى قضاء الليل معا ..

وهكذا تناسيت حذرى وشرعت أفتش الحجرة فى
عصبية بالغة .. لا أعتقد أن هناك من بحث عن رأس بهذه
الدقة والحماسة فى التاريخ .. لا شيء ..

خرجت من الحجرة .. وأنا أحمل المصباح فى كفى ..
وقرعت باب حجرة الزوجين دون كياسة كأننى شرطى
يقرع باب مجرم .. انفتح الباب وبرز لى (ميخائيل)
مذعورا وخلفه (تايبثا) تضم الروب حول جسدها ..

كان الرعب قد بدأ ينطلق من عينيه حتى قبل أن أحكى
شيئا .. هاتين العينين اللعينتين ! .. ما إن ترى الرعب
فيهما حتى يقتلك الرعب أنت نفسك .. هذا نوع آخر من
الخوف .. أن ترى الخوف فى عيون الآخرين حتى دون أن
تفهم ما الذى أفزعهم ..

- الرأس .. اختفى ..

- ماذا .. ؟

أشرت بيدي فى حركة توحى بالهباء :

- لا رأس ..

هل جننت !؟

قالت (تايبثا) فى رزانة :

- لحظة يا (رفعت) .. تقول إن الرأس اختفى .. وأنت لم
تفعل عنه لحظة .. أليس كذلك ؟ ..

سيكون هذا - حتماً - أكثر أمناً ..

- أتمنى لكما أحلاماً سعيدة !..

هكذا قلت وأنا أمدد جسدي على المرتبة فسمعت - في نفس الوقت تقريباً - سبة إنجليزية من (تابيثا) وسبة إغريقية من زوجها ..

مشكلتي هي أنني مهذب مهما ساءت الظروف !..

* * *

هل أشرق الصباح ؟..

بالطبع لا ... إن هذه الليلة لن تنتهي أبداً ..

والآن يزداد الأمر سوءاً إذا عرفنا أن (كاراداكيس) يتكلم في أثناء النوم، وهو يعاني كابوساً مروعاً في هذه اللحظات ... إنه يصرخ .. ويتوسل باليونانية .. ويهمس .. ثم يصرخ ..

كيف لا تسمع هذه الحمقاء كل هذا الضجيج !؟..

والآن أنا بين خيارين .. إما أن أوقظه وإما أن أخنق أنفاسه للأبد بوسادتي ... تحركت على ركبتي حتى وصلت جواره وشرعت أهزه في غلظة كأنني (أخص) قربة من اللبن ..

- (كاراداكيس) .. نم على جنبك ... هيا !..

شرع يهزف بكلام كثير لا أول له ولا آخر .. ثم تقلب .. هداً أخيراً ..

والآن أعود لمرتبتى لأواصل الأرق ..

* * *

لم أستطع النوم أكثر ولم أستطع الرقاد ..

نهضت من الفراش العشوائي .. ومضيت أذرع الصلاة وسط الظلام الدامس متأملاً لاشيء ..

أريد بعض الهواء النقي .. وأن أرى نجوم الليل البرينة في عالمها الساحر بعيداً عن كل هذه السخافات ..

اتجهت لباب الكوخ وتحسست المزلاج حتى وجدته ..

فتحته .. واتسبت إلى خارج المكان ... أغلقت الباب خلفي

نصف إغلاق لأنني لن أبعد كثيراً ..

أشعلت سيجارة وشرعت أجدب دخانها في صدري

شاعراً بالدوار الناجم عن دخول هذا السم إلى رئتيني لم

يدخلهما منذ ست ساعات ..

الجزيرة غافية ملتفة في الظلام، والساعة تقترب من

الثالثة فجراً .. ولربما كنت أنا الوحيد المتيقظ في هذا

العالم .. أنا والنجوم .. و ..

هل أنا أحلم ..؟..

لا ... هذا واقع ... هذا الضوء الخافت الضعيف القادم

من إحدى نوافذ كوخ الأستاذ (ستافروس ديندريوس) ..

إنه حقيقي ... ليس مزاحاً وليس خيالاً .. الكوخ المغلق

منذ شهور والذي لم يدخله أحد منذ تلك الليلة الرهيبة ..

هذا الضوء ليس انعكاساً لضوء آخر لأنه ببساطة لا يوجد

ضوء آخر ..

تدفق هرمون (الأدرينالين) في عروقي مرهفًا كل حواسي، جاعلاً مني شيئاً أقرب لقط متحفز... إن هناك سرًا ما ويجب أن أعرفه.. هي مجرد نظرة من إحدى النوافذ ستكون كافية لتفسير كل شيء... ولكن هناك شرطًا واحدًا هو ألا يتوقف قلبي عن الخفقان وأن تطيعني قدمي اللتان تحولتا إلى قالبين من (الجيلي) بهتان وبأبواب أن يتماسكا..

هيا.. هيا.. وببطء شديد..

الكوخ الكئيب..

ببطء أدور حوله متحسنا موطئي قدمي بين الرمال.. صوت البحر الثائر من بعيد.. ورائحة الأخشاب المكسوة بالطحالب؛ ومذاق التوتر في فمي..
والآن هذه هي النافذة المختارة..
أخذت شهيقًا عميقًا وقربت وجهي من الزجاج وشرعت أتأمل..

كانت النافذة مائلة على القاعة الفسيحة التي وجدت بها التمثالين ليلة وصلت للجزيرة.. وفي الضوء الخافت المبهم استطعت أن أرى التمثالين في وضعيهما الغريبين كما رأيتهما أول مرة.. هنالك بجوار الحائط ينظران إلى ذلك الشيء المروع على الأرض.. و...

[ترى هل تألموا؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا، فلماذا صرخوا؟]..

[في العاشرة مساءً سمعنا صرخة.. صرخة رهيبة لم نسمع مثلها من قبل]..
وهنا إزداد توترى..

لقد ماتا وهما بصرخان... هكذا قال الشهود أو هكذا قال (ميخائيل كاراداكيس)... إذا كان هذا صحيحًا فلماذا لا تصرخ أي تمثال فيهما؟.. الفم مغلق ونظرة رعب في العينين فقط.. لاشيء سوى هذا..

وعلى الأرض كان هناك تمثال مهشم لم أره من قبل... أمعنت النظرة فأدركت أنه بقايا تمثال الكلب.. من جلبيه ها هنا؟.. لقد تركناه على الشاطئ بعد المشاجرة واكتفت (تابيثا) برأسه كتذكير... فمن جمع البقايا وجليها ها هنا؟.. لا بد أنه الشرطي العجوز (بابادوبولوس) قد جاء به ليضمه لمجموعة (المتحجرين)... وحتماً هو من أشعل المصباح ونسبه جوار التمثالين... نعم.. لا يوجد تفسير آخر..

كنت منحنياً على الزجاج غارقاً في التفكير... تاركاً ظهري مكشوفاً.. وناسياً باب كوئنا نصف مفتوح وبداخله يغط الزوجان في النوم.. كان هذا إهمالاً شديداً..
إهنالاً لا يمكن الاعتذار عنه..
هل تعرف السبب...!!؟..

حين هوت الضربة على مؤخرة رأسي عرفت أي أحمق كنته ..

وقبل أن أفقد الوعي أدركت أنني بعد ثوان سأكون تحت رحمة ذلك الذي هاجمنى تمامًا .. أنا والزوجان البانسان النانمان في الكوخ ..

ثم ...

حين فتحت عيني كنت راقدًا في فراشي وضوء الشمس البهيج يفتersh الملاحة، وكان وجه مألوف يتفرس في بنفاد صبر واضح .. كان وجه ذلك الشرطي العجوز الذي فض الشغب أمس ..

ولم أكن في حاجة للمزيد من الأسئلة لأن القصة لا تحتاج لتفسير .. لكن أين الزوجان ؟ .. ولحسن الحظ وفرت عليّ (تابيثا) المزيد من التوتر حين دخلت الغرفة حاملة كوبًا من الحليب .. وكانت كدمات عديدة منتشرة على وجهها المتورم .. وخلفها دخل (ميخائيل) ووجهه في حالة أسوأ .. وكانت قبضة يده ملفوفة بالشاش حتى المعصم ..

- هل أفقت يا (رفعت) ؟ ..

قالتها (تابيثا) في مودة .. وقدمت لي كوب الحليب

وهي تعينني على النهوض ..

- أعتقد أن الأمر لم يكن فقدان وعي كاملًا ... لقد بدأ

كفقدان وعي ثم إنك واصلت نومك الهادي بعدها ..!

- ماذا حدث ؟ ..

- اعتداء .. لقد داهموا الكوخ ليلاً .. ضربوك ..

وأيقظونا أنا و (ميخائيل) محاولين إخبارنا على البوح

بمكان الرأس .. ولم يكونوا على استعداد لتصديق أنه

اختفى .. ضربونا ضربًا مبرحًا، وقلبوا الكوخ رأسًا على

عقب .. ثم ولّو الأدبار ..

- ومن هم ؟ ..

- كانوا مثلثين للأسف ..

أعدت رأسي للشلل، وناولتها كوب اللبن هامسًا

بالعربية :

- يالهي من مغفل !!

لم يحاول أحد الزوجين أن يلومني على إهمالي في

إغلاق باب الكوخ البارحة لأن جميعنا كان يعلم أن

المعتدين كانوا سيقتحمون الكوخ عنوة على كل حال ..

لكن الأسئلة التي طرحناها ظلت معلقة : أين ذهب الرأس ؟ ..
من سرقة في المرة الأولى ؟ ومن سرقة في المرة الثانية ؟ ..
أما السؤال عن شخصية المعتدين فلم يضايقنا كثيراً .. إنهم
- ببساطة - سكان القرية ..! .. هذه هي الإجابة وهي كافية
جداً على ما أظن ..

وفي الصباح فعلنا الشيء الوحيد الممكن : توجهنا إلى
المقبرة حاملين أدوات الحفر وشرعت أنا والزوج نستكمل
الحفر .. في حين شرعت (تابيثا) تلتقط صوراً مقربة
للكتابات النادرة على جدران المقبرة ..

أكثر من مرة شعرت بوهج الفلاش يلتصق في اتجاهي ..
فنظرت لها متسانلاً ، فصاحت في مرح دون أن ترفع
الكاميرا عن عينها :

- إنها صور نادرة لك غارقاً في الغبار والعرق .. ولن
أفوتها !! ..

في هذه اللحظة هوى (ميخائيل) بالرفش على طرف
خداسي ، فصرخت من الألم .. في ثوان التمتع وهج
الفلاش ، وانفجرت (تابيثا) ضاحكة هي وزوجها من هذه
الدعابة (الظريفة) ..

- والآن ها هي ذى صورة لك وأنت تعوى كالذئب !! ..
- أنتما مخبولان حقاً !!

واصلنا الحفر .. وأكوام التربة تتزايد في إهمال على
جوانب الكهف ..، وقد شعر كل منا أن محاولتنا خرقاء ...
و ... لحظة ! ..

ثمة شيء ما .. هل تشعر به ؟ .. نعم .. تعال .. مذبذبك
ها هنا وأغمض عينيك .. ها هو ذا .. هل رأيت ؟ .. أعني
هل شعرت به ؟ .. إنها كف من النحاس ! .. كف مخلبية
منقلصة من النحاس !! ..

والآن نجد الكف الأخرى ..

هل نفتح عيوننا ؟ .. لا بأس .. لا أظن أن كفى (ميدوسا)
خطرتان كوجهها .. وفي الفتحة نكف لنرمق هاتين
القطعتين الفينيتين البديعتين الرهيبتين .. كفتين منقلصتين
من النحاس الأصفر المغطى بطبقة سميكة من غبار
السنين وعوامل الأكسدة ..

قال (ميخائيل) وهو يلهث .. ويرتجف انفعالاً :

- أظن أن هذا يؤيد - تماماً - نظرية (تابيثا) .. هذه هي
جزيرة (الجرجونات الثلاث) .. والرأس أو الرأسان
اللذان وجدناهما لا يخصان (ميدوسا) بل الاتستين
شقيقتيها ! ..

- هذا منطقي .. إن (برسيوس) لم يقطع بدي
(ميدوسا) أبداً .. أو على الأقل لم تذكر الأسطورة ذلك ..

وهنا فطنت إلى شيء لم أفطن إليه من قبل... شيء كان
كأبلاً - لو أنني أكثر نكاة - أن يغير كل شيء ويوفر على
متابع لا حصر لها... ولأنني واثق من نكاء القارى فلن
أنكر هذا الشيء الآن حتى لا أقتل القصة قتلاً..

حين تعود لدارك بعد منتصف الليل.. وأنت واثق أنه
لا أحد بالداخل، وتجد الباب مفتوحاً.. والأتوار مضاعة..
ثم - برغم ذلك - لا تستخلص أية نتائج.. وتدخل الشقة
لتجد لصاً!.. عندئذ تلوم نفسك، لماذا لم تستنتج هذه
النتيجة البديهية!!؟ لأنك - ببساطة - لم تتوقع أن يحدث
هذا لك أنت بالذات..

هذا هو أنق وصف لموقفى لحظتها..
وللمرة المليون أكرر.. لم أدرك أى أحمق كفته!..

وفى كوخنا جلسنا نتأمل الصور بعد أن أخرجتها
(تأبيناً) من المحلول المثبت.. كانت هناك عدة صور لى
تظهرنى منهمكاً فى الحظر كالقنران أو صارخاً
كالمعتوهين.. ثم صور عديدة للرسوم التى كانت تملأ
الجدران..

مضى (ميخائيل) يتأمل الصور فى اهتمام وجبينه يتجدد
روياً رويداً مما دللى على مدى التركيز الذى يعاينه... ثم
همس وهو يداعب شفته السفلى بالحافة الحادة لإحدى
الصور:



كفّين متقلصين من النحاس الأصفر المغطى بطبقة سميكة من
غبار السنين وعوامل الأكسدة..

- لا شيء يدل على أن هذا قبر شقيقتي (ميدوسا) ..
لكننا على الأقل نعرف ذلك ..

أمسكت بإحدى الكفين النحاسيتين ، وقلمتها متأملاً :
- إننى أتساءل كيف كانت امرأة رقيقة تمارس حياتها
بهاتين الكفين ؟

- إنهما بالتأكيد لم يسهلا لها الطهى أو أشغال
(التريكو) !..

هذا صحيح .. لا يوجد مفصل واحد ..

قالت (تابيثا) وهى تصب لنا بعض القهوة :

- على كل حال .. لقد انتهت القضية .. لا يوجد
رأس .. ولم يثبت لنا شيء واحد .. إنه الوقت المناسب
لإغلاق هذه الصفحة وإبلاغ السلطات فى (أثينا) ..

نظر لها (ميخائيل) فى عصبية .. وشرع يتكلم
باليونانية فى توتر وحماس ..

وعيناه تلتصعان بغشاوة دموع ناجمة عن الغضب ..
وضعت (تابيثا) كفيها على كفة موازية .. أما هو فشرع
يردد لفظة يونانية ما .. يجب أن أتعلم اليونانية ..
يجب .. (تابيثا) تقرب وجهها من أذنه وتقول شيئاً ما ..
ثم تلتفت لى لتشرح ما هناك :

- إن (ميخائيل) .. يرى أن هذا الكشف قضية عمره ..
ويرى أنها فرصته الوحيدة - ربما الأخيرة - ليفقد عالم
أثار مرموقاً ويفلت من مستنقع العلماء المجهولين ..

إنه يقول إن التخلّى عن هذا الكشف الرائع للحكومة قبل أن
ينضج أشبه بمن يربى طفلاً ثم يتخلّى عنه بمجرد أن يتعلم
المشى ..

التفت لى (ميخائيل) بعينه الدامعتين .. وهتف :
- بعض الوقت .. لننتظر بعض الوقت فقد تتحسن
الأمر !..

وافقتة على الفور خاصة وأننى لم أرى داع لهذا
التشنج .. يمكنه أن يقول ما يريد دون بكاء .. يبدو أننى لن
أفهم هؤلاء اليونانيين أبداً ..

عدت لغرفتى وأشعلت مصباح الكيروسين وشرعت
أحرق فى اللهب شارد الذهن .. هناك مشروع صغير أنوى
القيام به .. ولكنى أحتاج إلى معونة .. وبالتأكيد ليست
معونة واحد من الزوجين ..

مددت يدي أعبث فى حقيبتى .. حتى أخرجت ما كنت
أبحث عنه .. ثلاثة كتب عن تعلم اللغة اليونانية .. اثنان
منهما للغارنى الإنجليزي وواحد للغارنى العربى .. أحتاج إلى
فترة أسبوع أقضيها فى دراسة مكثفة لهذه الكتب ..
وبعدها .. بالطبع لن أستطع قراءة مسرحية
لـ (سوفوكليس) (*) لكنى على الأقل سأخذ فكرة مبهمة
عن موضوع أية محادثة تدور أمامى ..

(*) (سوفوكليس) : كاتب مسرحى يونانى كبير .. أشهر أعماله
(أوديب) و (أوديب فى كولونا) .

إننى بحاجة لمعرفة هؤلاء القوم .. أن أسألهم عن أحداث تلك الليلة ، عن رؤيتهم الخاصة للأسطورة .. عن علاقتهم بالعالم (المتحجر) (ستافروس ديندريوس) وعن علاقته بتلميذه (ميخائيل كاراداكيس) وزوجته ..

كل هذا سيحلّ لو وجدت صديقاً واحداً .. واحداً فقط .. بالإضافة إلى التحسن المحتم فى لغتى الوليدة .. لم أكن أريد أن أتم بقواعد اليونانية بل إننى لم أحاول حتى التعرف على حروف كتابتها ؛ كنت أريد (الحد الأدنى للأمان اللغوى) الذى حدث عنه (هارى) يوماً ما فى أحد مقاهى (جامايكا) .. أن أفهم - بالتقريب - ما يقال أمامى .. وهذا لا محالة يحتاج إلى أن أجد من أتحدث إليه .. ولكن من ؟.. وكيف ؟..

ويبدو أن الحل كان أقرب مما توقعت ..

كنت ماراً بجوار البئر شارد الذهن أرمق بنصف اهتمام العذارى الساحرات حافيات الأقدام يملأن جرار الماء وهن يتصايحن ويمرحن .. كأنها صورة من رسم جدارى إغريقى قديم ؛ حين أطلقت إحداهن صرخة .. وهوت على الأرض فى الطين ..

أصابت الفتيات الباقيات حالة من الهستيريا وشرعن يجلسنها .. ويحاوّنن - يا لهن من حمقاوات - صب الماء فى حلقها ..

حين تسمع عبارة يونانية طويلة تقال أمامك ، وتلتقط منها كلمتين فحسب مثل (عشاء) و (صديق) فإن الأمر لا يبدو صعباً .. بشيء من الخيال يمكنك استنتاج أن فحوى العبارة « أن صديقى يدعونى للعشاء » أو أعدى العشاء لصديقنا .. أو أية عبارة أخرى تتناسب الموقف .. هذا هو ما أريده ...

لم أكن أريد أن أظل تحت رحمة الترجمة وما تجود به على فهمى ..

وهكذا شرعت أدرس فى حماسة حتى توترت عضلات عيني ، وحين نمت أخيراً كانت هناك صفحات كثيرة قد انتهت من الكتاب الأول ..

صباح اليوم التالى خرجت وحيذا للنزهة (كما قلت لهما) ..

شرعت أمشى فى الجزيرة أرمق السكان فى نظرة متلهفة إلى كسر الحواجز الخرسانية المشيدة بيننا .. أنهم يبدوون طبيبين وبسطاء .. وأعتقد أن صداقتهم سهلة بلكنى لم أنس لحظة ما أمثله لهم : الشيطان الأصنع الذى جاء ليزيد الحياة تعقيداً ..

إنها مجرد حالة إغماء هستيرى أو ناجم عن هبوط
الضغط الدموى أو أى شيء من هذا القبيل... والضحية
تطبق تلقائياً فى كل الحالات ما لم يحاول أحد الحمقى
إجلاسها أو صبّ سوائل فى حلقها معرضاً إياها
للاختناق...!

الحق أقول إننى لم أدر ما أفعله .. شققت صفوف
الفتيات المندهشات .. وانحنيت لأريح رأس الفتاة المغشى
عليها على الأرض .. وبصرامة أبعدت كل من تمنول لها
نفسها أن تحاول إجلاسها أو صبّ الماء على شفتيها ..

إن هذا هو ما يسميه الطب (الإهمال العلمى) .. ما أن
تتأكد من أن ما أنت بصدده ليس نوبة قلبية .. عليك أن
تترك المغشى عليه وشأنه حيث هو على الأرض دون
محاولات بطولية .. حتى تتكفل وضعيته الرائدة بتسهيل
وصول الدم إلى المخ .. عندئذ يفوق وحده ويتساءل : ماذا
حل بى ؟ ..

وهذا هو ما أفعله الآن كأفضل ما يكون ! ..
وهكذا - وبعد ثوان - بدأ الدم يعود لوجنتى الفتاة ..
وانفتحت عيناها عن تلك النظرة الخاوية المجردة من أى
معنى ..

كانت سمراء زرقاء العينين وخصلات شعرها الأصفر
تتناثر فى إهمال على وجهها وفى الوحل .. وكان مندبل
رأسها القفر قد سقط منها .. كانت جميلة لكنها - بالتأكيد -
لم تكن نظيفة أو لعل سقطتها فى الوحل قد جعلتها تبدو
كذلك ..

ما إن أحسست أنها عادت للعالم حتى ساعدتها على
الجلوس .. وأشرت لإحداهن كى تناولنى كوب الماء
الفخارى الذى تمسك به ، وناولته للفتاة ..
وتعاونت مع فتاة قوية العضلات على إنهاضها ..
ومضينا فى صمت وهى متوكئة علينا إلى دارها ..

وفى داخل الكوخ الفقير خيل لى أننى أطوى الأميال إلى
بنتى فى قريتى .. إن الإنسان هو الإنسان فى كل مكان ،
نفس الأثاث البدائى وأسراب الدواجن التى تتعثر فيها
قدمك .. وإخوتها الصغار يلعبون فى الرمال ويرمقوننا
فى فضول .. ولهفة العجوز اليونانية المتشحة بالسواد
والتى يمكن أن تكون أمى أنا ..

ومثل أمى - لو كانت شقيقتى هى التى أغشى عليها -
شرعت توبخ الفتاة بسبيل من العبارات اليونانية التى
لا أحتاج لكثير نكاه كى استنتج معناها .. توبخها على
خروجها دون إخطار ، أو على ارتدائها ثياباً خفيفة أصابتها

بالبرد ، أو ثيابنا ثقيلة جعلتها تختنق !.. أو أى شيء كانت
ستقوله أسمى فى هذه الظروف ..

ثم إن المرأة صُنبت لى بعض (الأوزو) فى كأس وقدمته
لى .. فرفضته شاكراً ، قائلاً :

– كرستبولى !..

ضحكت هى والفتاة – صديقة ابنتها – فى مرح ... ثم
قالت لى الفتاة مصححة وهى تحرك شفيتها أكثر من اللازم
لتنقل لى النطق بدقة :

– خريستوبولى !..! كريسْتوبو... لى....!

– خريستوبولى !..!

هكذا .. هذه أول كلمة منطوقة تُضاف لقاموسى
اليونانى... لقد ربحت كلمة .. وربحت – وهذا هو الأهم –
خطوة أولى نحو مصادقة هؤلاء القوم ..

لقد بدأ ذوبان الجليد !..

★ ★ ★

وهكذا صارت لى صلة صداقة لا بأس بها فى هذه
القرية ، وبدأ عدد الساعات التى أقضيها فى هذا الكوخ مع
تلك الأميرة الصغيرة البسيطة يتزايد تدريجياً ..
لم يكن الأب موجوداً وقد تجنبت السؤال عنه بطبيعة
الحال ، لأنه إما ميت أو سجين أو منفصل !.. وكلها

١٠٢

حالات لا تسمح بالفضول .. وكانت الفتاة – واسمها
(إيرين) – شيطانة صغيرة مراهقة هى للطفولة أقرب وقد
اعتبرت لى منقذاً لحياتها دونما سبب واضح .. أما الأطفال
فهدءوا ويميلون إلى ..

هنالك كنت أجلس فى الشمس أداعب الصغار وأحدث
(إيرين) عن كل شيء بلغتى اليونانية الوليدة وأكتب كل
ما تقوله هى – بالنطق – بحروف عربية مُشكلة ، وألثم
القطائر التى تقدمها لى الأم ..

وتكريجياً بدأ الجيران يقبلون حقيقة وجودى ويفهمون
أننى مسالم .. وأننى لا أتحوّل لمصاص دماء حين يحل
الظلام ..

★ ★ ★

لماذا لم أصارح الزوجين بحقيقة جولتى؟ ..
لا أبرى .. إنه ذلك الحافظ الخفى الذى يراونى
باستمرار ويدفعنى إلى عمل أشياء حكيمة جداً لأبرى
سببها !.. كل ما كانا يعلمانه عنى هو أننى أهوى المسير
فى الجزيرة وحيداً لساعات طويلة كل يوم ..

١٠٣

١٠ - الكوخ والنظارة الحجرية ..

الواقع أن لغتي اليونانية قد تحسنت إلى حد غير عادي خلال أسبوع (أو أكثر قليلاً) ... صحيح أن عيني قد أرهقت من الدراسة الشاقة ليلاً على ضوء مصباح (الكبروسين) خاصة وأننى لا أدري من السفاح الذى فكر فى طباعة كتب تعليم اليونانية على ورق مصقول ..!، وصحيح أن خلايا ذهني قد أوشكت على الاحتراق؛ إلا أن النتيجة كانت رائعة ... وغدا حديثي مع (إيرين) - وهى تحفر الرمال بأصبع قدمها الدقيق - أكثر تمكناً وسلاسة ..

فى ذلك اليوم دخلت لأجد (ميخائيل) جالساً على المائدة الخشبية يدقون شيئاً ما وأمامه أشياء حجرية دقيقة لم أدرك كنهها .. أشار لى لأجلس .. ثم مد يده والنقطة .. سمكة حجرية تتلوى كانت أمامه ، وغمغم :
- هل رأيت هذه!؟ ..

مددت يدى فى تردد .. والنقطة الجسم الأملس .. كانت سمكة من نوع مجهول كهذه التى نأكلها يومياً ... وكانت جاحظة العينين تتلوى فى ألم واضح كأنها فى شباك صياد ... وكانت ثقيلة جداً ..

والواقع أننى لم أكن الوحيد ..
(تابيثا) أيضاً صارت تختفى لساعات طويلة فى مكان لا يعلمه إلا الله ، ثم زوجها ..
أين كانت تذهب ، ولماذا ..!؟ ..
لقد فهمت كل شيء فيما بعد .. وبإله من تفسير ..!



- إن هذا يعنى ..
 - نعم .. لقد غاص الرأس فى بحر (إيجه) ! ..
 وتحجرت الأسماك ! ..
 - ومن وجد هذه الأسماك ؟
 - واحد من صيادينا .. كان يسير جوار الشاطئ حين
 وجد عشرات الأسماك الحجرية قذفها الموج هناك ..
 تأملت السمكة فى اهتمام .. ثم غمغمت فى حيرة :
 - غريبة خواص الماء عندكم ! ..
 - ماذا تعنى ؟ ..
 - إن قوانين (أرشميدس) الخاصة بطفو الأجسام
 لا تسرى على (اليونان) فيما أظن .. رأس يهبط للأعماق ،
 وأسماك يتجاوز وزن الواحدة منها نصف الكيلوجرام
 وتطفو برغم ذلك ! .. !!
 ازداد وجهه حيرة واتسعت عيناه الزرقاوان :
 - الام تلمح ؟
 دون شعور أشعلت سيجارة متجاهلاً تعبير الاحتجاج
 على وجهه .. وقلت :
 - إنها دعابة لا أكثر .. ولمرة أخرى أشعر أن هناك
 تلفيقاً فى الأمر .. هناك من وضع هذه الأسماك عمداً
 ليوحى لنا أن الرأس فى أعماق البحر .. وليس هذا كل
 شيء ..



مددت يدي فى تردد .. والتقطت الجسم الأملس .. كانت
 سمكة من نوع مجهول كهذه التى ناكلها يومياً ..

ووضعت السمكة على المائدة .. وأردفت :-

- الكفان النحاسيان ... خطر لى عندما وجنناهما أنه من الصعب أن يكون هناك (أثر لحام) فى كفسى (ميدوسا) !.. لكننى لم أتماد فى خواطرى وقتها ولم أعلق أهمية ما على تلك الملاحظة ... لكنها هامة جدًا .. لقد تم صب هذين الكفين ولحام نصفى كل كف .. وقد ظل هذا الموضوع واضحًا برغم ما قام به النحات من معالجة النحاس كيميائيًا لإكسابه منظر القرم .. كان ينظر لى مقطبًا وعلى وجهه علامات الاهتمام .. على حين استطردت :

- ثم النقطة الأكثر أهمية .. لقد كانت تجول فى ذهنى حين ضربونى فى تلك الليلة والآن أعود فأذكرها ... لقد مات كل ضحايا (ميدوسا) وهم بصرخون .. لكننا لم نجد تمثالًا واحدًا يصرخ .. هل تعرف السبب؟ .. ونفقت دخان السيارة :

- لأن النحات العبقري لم يكن يعرف كيف يبدو ضحاياها وقت الصراخ .. لقد أراد أن يحاكي ملامحهم بدقة ؛ لكن هذه الملامح كانت ستشوهه بشكل مريع لو حاول أن يجعلهم بصرخون وكان التعرف عليهم سيبدو صعبًا ... ثم أتت النقطة التالية .. وأشرت إلى نظارتى ..

- النظارة .. نظارة الأستاذ (ستافروس دندرينوس) .. قلتما أنه كان ضعيف البصر وكان يكتب خواطره على المكتب ثم نهض لبحث عن الرأس تحت الفراش .. ألا يحتاج كل هذا إلى أن يظل مرتديًا نظارته؟! .. والآن لم يكن تمثاله الحجرى يرتدى نظارة .. ولم يقل أحد إنه وجد النظارة .. لماذا؟! .. لأن نحت النظارة كارثة حقيقية وشديد الصعوبة (وثق أن لى خبرة فى هذا الصدد) ؛ لهذا فضل نحاتنا تجاهل الأمر أملًا فى أن أحدًا لن يبحث عن هذه النظارة الحجرية ..

كان سيل استنتاجاتى يتوالى .. والنظرة المذهولة على وجه (ميخائيل) تزداد وضوحًا ..

- هكذا ترى يا (ميخائيل) أن اللعبة بأكملها لعبة نحات بارع .. صحيح أن لى تحفظات حول قدراته على نحت النظارات والوجوه الصارخة لكننى لا أشك فى موهبته لحظة ... هذا النحات استطاع أن يجعلنا نعيش فى كابوس حقيقى من صنع يده ..

- ولكن من هو؟ ..

- هذا هو السؤال كما قال (شكسبير) ... على أننى لأستبعد ما قلته من قبل .. وهو أن هناك ألعوبة محبوكة خططها هذا الـ (دندرينوس) بحثًا عن مجد علمى مزيف ... وهو الآن مختبئ - مع رئيس عماله - فى كوخ ما يضحكان ..

- و ... وكلبي الذي ...؟

- لقد تركنا الكلب في الكهف فترة لا بأس بها كافية لأي

شيء .. و ...

وهنا ابتلعت ريتي .. الواقع أن أحذا سوانا لم يكن

لبيستطيع أن يستعد بتمثال كلب تحسبنا لهذه اللحظة .. من

المستحيل أن يكون هذا النحات قد أعد تمثالا لكلب يتلوى

على أمل أن نستخدم الكلب للبحث عن الرأس يوماً ما ..

والواقع أنني - أعترف - أجد في كل لحظة ما يدعم

شكوكي في هذين الزوجين اللطيفين ... وأنني قد ارتكبت

حمالة لا بأس بها حين صارحت (ميخائيل) بشكوكي ..

لكن حكاية الأسماك هذه قد فالت قدرتي على التحمل ..

في هذه اللحظة انفتح الباب ودخلت (تابيثا) .. كانت

غارقة في العرق ومنهكة تماماً وعلى ذراعها تتدلى حقيبة

جلدية ثقيلة ، وما إن رأته حتى لوحت في فتور وهي تلقى

بحملها في إهمال على الأرض :

- هاى ..!

- مرحباً ..!

وجلست على العائدة .. ومدت يدها تتحسس الأسماك

الحجرية الملقاة هناك ، نظر لها (ميخائيل) وقال لها

شينا ما .. باليونانية !، تحفزت كل حواسي وأنا أنصت إلى عبارات اللغة التي لم تعد مبهمة بالنسبة لي إلى هذا الحد ... كأنه كهف مظلم اعتدت دخوله .. واليوم أدخله لأول مرة حاملاً كمشافاً كهريبياً !..

- هل أنت (... لم أفهم) الكوخ الآخر ؟

- نعم .. (... لم أفهم) .. عمل كثير .. (لم أفهم ..)

ثلاثة ..

- (لم أفهم ..) .. لا يصدق .. (لم أفهم ..)

- (... لم أفهم ..) .. (لم أفهم) ؟..

- (... لم أفهم) .. العامل .. (لم أفهم) .. الكلب ..

إن هذه المحادثة شديدة الأهمية .. هناك كووخ آخر ..

تقوم فيه (تابيثا) بعمل كثير ينتهي بعد ثلاثة .. وقد أدركا

أنني لاأصدق .. وأن العامل والكلب لهما علاقة

بالموضوع .. هذا هو كل ما يمكنني استخلاصه ..

مشكلتي مع (إبرين) هي اعتمادها المطلق على الإشارة

إلى أشياء بعينها مع ذكر اسمها .. تشير لكلب وتقول لي

إن اسمه كذا .. تشير لكوخ وتقول لي إن اسمه كذا ... لكن

هذه الطريقة - طريقة الخواجة (ماكسميليان برليتز) (*) - تكون مرهفة جداً إذا ما حاولت أن تشرح لي

معاني مجردة مثل : الحياة .. الفكرة .. الجريمة ..

(*) (ماكسميليان برليتز) : أستاذ لغات عالمي له طريقة فريدة في تدريس اللغات والتي تتبعها سلسلة معاهدة (برليتز) في العالم كله .

القلق .. إلخ ... كما أن ترجمة الأفعال تصير شبه
مستحيلة .. دعك من الظروف والأسماء الموصولة ..
لكننى على الأقل أعرف أن هناك خطوة أولى .. الكوخ
الأخر .. كوخ الأستاذ (ستافروس بندرينوس) حتماً ..
سيكون على التسلسل إليّه هذه الليلة ... وكبداية لا بد من
سرقة مفتاحه من (ميخائيل) الأمر الذى لن يكون صعباً
إلى هذا الحد ... إننى لم أر شخصاً أكثر إهمالاً منه فى حمل
المفاتيح ولن أحتاج إلا لدقيقة أبداً فيها بالمفتاح مفتاحاً
صنلداً يشبهه تماماً من سلسلة مفاتيحي الخاصة .. مفتاح
دولابى الخاص فى المدينة الجامعية منذ عشرين عاماً على
الأقل !

والآن .. تم كل شيء بنجاح .. ها هو ذا المفتاح فى
قبضتى .. والشكوك فى صدرى .. ولكن .. لماذا نسيت
مسدسى فى (مصر) هذه المرة؟ ..
حطاً إننى أرتكب حماقات عديدة ! ..

والآن نام الزوجان وساد الظلام الجزيرة ..
تعال معى .. هل ترغب فى مشاركتى هذه المغامرة
القصيرة؟ .. إذا كنت لا تريد ذلك فهذا شأنك أما أنا
فأذهب .. لا تخذلى ..

ستأتى معى ؟ .. حسن .. فلنخرج من باب الكوخ فى
هدوء وخفة ... ولننقله من ورائنا .. وفوق الرمال
الناعمة نمشى نتحسس خطواتنا .. نحو الكوخ الآخر نمشى
.. ونخرج المفتاح الصدى نعالج به القفل على ضوء
البطارية ..

إننى سعيد أنك قد جنت معى .. فإبنى أشعر بالاطمئنان
إلى حد كبير ..

أحترس لأن دخولنا سيثير اضطراب الوطواط .. إنها
لا ترى - هذه المخلوقات البرينة البشعة - لكنها مرهفة
السمع إلى حد مرعب ..

والآن أغلق الباب خلفك واتبعنى .. إن خشب الأرضية
يصدر صريراً .. وضوء الكشاف يرسم دوائر مرعبة فى كل
مكان لكن لا تهتم ..

هذان هما التمثالان المفترضان للضحيتين السابقتين
مع تمثالى الفأرين، و .. لقد اختلقت بقايا تمثال الكلب
المهشمة .. هل لاحظت هذا ؟ فيما عدا ذلك لا يوجد شيء
يشير الريبة .. لا شيء ..

لكن ...

هل ترى هذه الأثار الواضحة فوق خشب الأرضية
المكسو بالرمال؟ .. آثار قدمين متميزتين .. وبالتحديد
صنلداً (تابيئا) ذى النقوش المتموجة ..

الآثار تتحرك - جينة وذهابا - فوق خشب الأرضية
وشعاع البطارية يجرى فوقها ... إلا أنها تتوقف عند ..
عند هذا اللوح الخشبي المتحلل والذي لا يثبتته سوى
مسمار محوى صدى ..

هل هذا صوت باب كوخ يفتح؟! .. للحظة توقفت كل
وظائفي الحيوية .. ثم قلت لنفسي إنه صوت الأمواج
البعيدة ..

بغاية التحنيت فوق لوح الأرضية وعالجت المسمار
المحوى ... ها هو ذا يدور مما يجعل رفع ذلك اللوح
ممكنا .. هذا هو ما توقعته ... والآن سأرفع اللوح ببطء
شديد .. وأوجه شعاع البطارية عبر الفتحة ..

إن تحته ما يشبه الكهف المظلم .. إذن هذا هو المخبأ
المسمى الذي ترتاده (تايبثا) .. والذي يحوى تفسير كل
شيء ..

هل أدخل؟! .. لم لا؟! .. إننى واثق أن الزوجين
نائمان .. ثم إنك معى وهذا يكفى لكيلا يقتلنى الهلع ..

التحنيت على ركبتى ووضعت الكشاف فى فمى ..
وشرعت أدمج جسدى فى الفتحة الضيقة شاعزا بالآلام
سنين عدم المران ... وفى محاولة حمقاء ألقىت بجسدى
أرضا ..

فوق الرمال هويت - من ارتفاع بسيط لحسن الحظ - وما
أن استطعت الاتزان على قدمى حتى شرعت أتلفحص
المكان ... كان كهفا صغيرا ذمعت حوائطه بعروق خشبية
عشوانية .. وفوق رأسى كانت الفتحة التى دخلت منها ..
إن الصعود إليها ومغادرة المكان لن يكون سهلا لكنه
ممكنا ..

بدأت أتلفح المكان ببطء شديد ..

علب طعام محفوظة مدفونة فى الرمال وبضع زجاجات
فارغة ... ثم أدوات نحت مبعثرة فى إهمال هنا وهناك ..
إذن هذا هو (الأتيليه) .. وعند قدمى وجدت بقايا حجرية
مألوفة لى .. بقايا تمثال كلب .. لهذا بادروا باخفاء هذه
البقايا .. لأن تهشم التمثال أظهر بوضوح قطع السلك
المغموسة كدعامات فى خامته .. لم يلحظ أحد ذلك فى
الظلام لكن عيني للنحات الخبيرتين فطننا للأمر ..

رفعت شعاع البطارية فى بطة .. فوجدت ..

وجدت تمثالى وأنا أصرخ فى هلع!! لبضع ثوان اختل
توازنى تماما .. ثم بدأت أستعيد أفكارى ..

★ ★ ★

إنها لتجربة عجيبة أن ترى نفسك في صورة تمثال بالحجم الطبيعي واقفاً بترنج وإحدى يديه تحمل كشافاً والأخرى تتلوى محاولة حجب الرؤية ..! كان التمثال متقلداً، ولم ينس النحات هذه المرة أن يضيف نظارتى .. وكان التمثال يرتدى قميصاً صيفياً وبنطلوناً مشمراً كأن صاحبه كان يسير على الشاطئ...، وعلى الوجه كانت الملامح المتقلصة تعكس أعتى أمارات الألم الممزوج بالرعب ..

وعند قدمي التمثال كانت ثلاث صور فوتوغرافية مأنوفة لى .. الصور التى التقطتها لى (تابيثا) مداعبة منذ أيام ..!.. أه ..! الأوغاد ..! هذه المرة لم ينسوا النظارة .. وكانت عندهم صورة واضحة لى وأنا أصرخ التقطتها لى هى حين تظاهر (ميخائيل) بأنه يمازحنى وهوى بالرفش على قدمي ..!..

إن (تابيثا) هى ذلك النحات العبقري الذى نحت تمثالاً لى مستعينا بصور فوتوغرافية .. نعم .. فى أيام الدراسة كانت شيطانة الجامعة الموهوبة - كما قالت هى - تجيد الرسم والنحت وكتابة الشعر والقصة ، ولها مراسلات تفخر بها مع (ماتيس) النحات العبقري .. لكنسى نسيت ..!.. نسيت تماماً ..

لماذا فعلاً ذلك؟.. ما هو سر هذا التبدل الشرير فى شخصيتها؟!..

لا أدرى .. ولا أرى تفسيراً لكل هذا ..
لكن هناك حقيقة واحدة .. لقد أعدا كل شيء
لاختفائى .. لقد تحددت الضحية القادمة لرأس
(ميدوسا) .. وهذه الضحية هى أنا ..!

★ ★ ★

عدت للكوخ شارداً الذهن تماماً (لكنى لم أنس إزالة آثار
أقدامى وإغلاق الباب) .. وقد بدأت أدرك أنني فى مأزق
خطير ..

لقد قرأ - لسبب ما - أن يتخلصا منى ، وقد قرأ أن
يبدو الأمر على أنه حادث أليم ألم بهى فى أثناء سيرى على
الشاطئ .. فجأة وجدت رأس (ميدوسا) الذى ألقى به
الموج على الرمال .. وقد حدث هذا ليلاً لأننى كنت أحمل
كشافاً .. لقد انتهى العذ التنازلى فالتمثال مكتمل .. هذا هو
سر اختفاء (تابيثا) المتكرر فى الأيام الماضية .. ومعنى
هذا أن نهايتى ستتم فى الساعات أو الأيام القليلة
القادمة .. وبعد ما قلته لـ (ميخائيل) لم يعد لديهما مبرر
للتردد فيما يتعلق بشأنى .. إننى خطر داهم عليهما ..

★ ★ ★

هل أهرب ؟ .. هل أبلغ الشرطة ؟ ..

هذا هو الحل الوحيد الممكن ... لا مجال للممارسات البطولية ... ولكن لربما كان إبقاء الأمور كما هي هو الحل الأفضل هذه الليلة .. بعض النوم لن يضير أحدا مادمت سأحكم إغلاق غرفتي .. ومادمت سأتحلى بالحنر .. وهكذا .. نعمت .. ولكن أي نوم ! ..

في الصباح جلست على مائدة الإفطار أرمقهما في نظرات متوترة حاولت أن أخفيها قدر الإمكان .. باللنفاق ! .. هما يريدان قتلى وأنا أعرف ذلك لكننا نتصرف كسادة مهذبين .. بحذر تمكنت من أن أعيد مفتاح الكوخ الآخر إلى سلسلة مفاتيح (ميخائيل) وأن أسترد مفاتيح العتيق ..

صنبت لي (تابيثا) كوبا من اللبن وقدمته لي .. ثم صنبت كوبا آخر لزوجها .. قربت كوب اللبن من شفتي وكدت أشرب لولا أنني لاحظت شيئا ما ..

لماذا اختارت لي هذا الكوب الكبير المميز واختصت (ميخائيل) بالكوب الآخر ؟ ..

ولماذا تتجنب النظر لعيني، وترتجف شفاتها بهذا الشكل ؟ ..

تباطأت في تناول اللبن .. وأصخت سمعي لما يقول الرجل باليونانية :

- هل هذا هو الكوب (.. لم أفهم ..) ؟ ..

قالت دون أن تنظر لي أو له :

- نعم .. (لم أفهم ..) .. لبن .. (.. لم أفهم ..) .. يموت

بعد دقائق !!



١١ - كشف الأوراق ..

أخذ عقلي يعمل كمحرك سيارة سباق ..
إن أمامي عدة حلول : أن أرفض الشرب .. أو أسكب
الكوب بحمافة .. أو أتركهما وأفر .. لكن عقلي المحموم
كان عاجزاً عن الموازنة بين هذه الحلول ..
قالت (تابيثا) في حنان وهي تبدأ إفطارها :
- ما بك يا (رفعت) ؟ .. هل كرهت الحليب فجأة ؟! ..
يا لك من أفعى !! هذه الرقة وكل هذا الحنان من أجل
قتلى !! لكن ماذا عساي فاعل ؟! لئس من الحكمة إثارة
ريبتهما لأن هذا قد يدفعهما إلى استخدام طرق أخرى ..
(ميخائيل) قوى البنية وزوجته تمسك السكين لتقطيع
الخبز ولن تكون مواجهتي معهما مضمونة النتائج لي أنا
النحيل المعجوز متلاحق الانفاس ..
وهكذا .. كان الحل الوحيد الذي بدا لي ممكناً ..
مددت يدي إلى المائدة فضربت كوب الحليب الذي
انسكب على المائدة على الفور ..
شرعت أردد عبارات الأسف .. وأجففت المائدة بخرقة
قماشية كانت هنالك .. لحظات ثم رفعت عيني لتلتقي بنظرة
باردة قاسية في عيني (ميخائيل) الزرقاوين .. وعلى ثغر
(تابيثا) الرفيع القاسي تلاعبت ابتسامة نصر وحشية ..

بعد ثوان خرج صوت (ميخائيل) بارداً هادئاً كنظرته :
- إذن أنت تفهم اليونانية ..! ..
نظرت له في ذهول ... إلا أنه واصل الكلام دون أن يبذل
جلسته :

- لا يوجد منم في الكوب .. إنه مجرد اختبار بسيط
أجريناه للتأكد من مدى فهمك لليونانية ، وقد نجحت في
الامتحان .. أو بالأحرى رسبت فيه !!

رفعت رأسي في استسلام .. وقلت :
- كيف خمنتها ؟

قالت (تابيثا) بنفس الابتسامة :

- لا صعوبة في الأمر .. كنت - في البداية - تصفي
لمحادثاتي اليونانية بتلك النظرة الزجاجية الخاوية التي
تميز كل من يسمع محادثة بلغة لا يعرفها .. مع لمسة قلبي
وتحفظ توقعاً لأن يكون هو محور هذه المحادثة .. في
الأيام الأخيرة تغيرت نظراتك .. لم تعد خاوية بل صارت
ناطقة بالفهم .. بالمشاركة ؛ وإن حاولت إخفاء ذلك !!
قال (ميخائيل) :



وهنا نحت شيئاً ما في يد (ميخائيل) جعلني أدرك أن عرضهما لا يمكن رفضه ..

- ثم إن لي مصادر معلوماتي في الجزيرة .. من الحماقة أن تعتقد أنني لم أعرف بأمر زيارتك لهذه الأسرة اليونانية ومحاولتك الجادة لتعلم اللغة اليونانية منهم ... لماذا لم تطلب المعاونة ؟ .. بالطبع لأنك تريد ألا أعرف أنك تعرف .. ولماذا ؟ .. لأنك تريد التجسس على أنا و (تابيثا) .. ولماذا تتجسس ؟ .. لأنك تشك ..! .. نظرت لي (تابيثا) في رزانة .. وابتسمت نفس الابتسامة ، قائلة :

- إنني و (ميخائيل) نعتقد أننا نعرف ما تعرفه .. لكننا نريد سماع رأيك في الموضوع .. هيا ..! لا تخجل .. نهضت من مقعدي في توتر مزمعا أن أهرب .. وهنا لمحت شيئا ما في يد (ميخائيل) جعلني أدرك أن عرضهما لا يمكن رفضه ... مسددا أسود اللون بشع المنظر في يده مصوباً إلى وفوهته أكثر طولاً مما أتوقع .. لا بد أن هذا هو (كاتم الصوت) الذي كنت أراه في السينما .. وفي عيني (ميخائيل) رأيت الحقيقة .. إنني لن أخرج من هنا حياً .. أشعلت سيجارة عالفاً أن أحدهما لن يعترض هذه المرة .. وقلت وأنا أعود لمقعدي :

- حسن .. سأتكلم ..

خلفض فوهة المسدس وإن أبهاها مصوبة على دائرة
جسدى .. وأشار لى أن استمر ... أردفت :

- لقد كان الأمر كله محاولة للتخلص من البروفيسور
(درندرينوس) الذى اعتقد أنه كان يهددكما بشيء ما ..
ربما كان يملك دليلاً يدينكما فى شيء مثل .. مثل تهريب
الأثار مثلاً .. أليس كذلك ؟

- بلى .. أنت لم تخطئ كثيراً .. استمر ..

- وهنا ولدت الفكرة الجهنمية التى لا تكتبها إلا مؤلفة
رعب موهوبة مثل (تابيثا) .. لماذا لا تعيدان أسطورة
(ميدوسا) للحياة ..!؟.. لا تحتاجان إلا لتمثال أو اثنتين ..
ورأس مخلط لقرن خيوطت إليه بعض الثعابين ؛ لقد كان
عملاً مقررًا لكن الفكرة المجنونة كانت قد تملككما .. ثم
إن أحدًا - وكنتما تعولان على هذا - لم يكن ليجرؤ على
تجاوز الحاجز النفسى والنظر للرأس مباشرة .. إن الصور
الفوتوغرافية كانت ستخفى آثار التلغيق إلى حد ما ..
- استمر ..

- وبدأت (تابيثا) ترتب كل شيء ... لا أدرى هل قتلتما
رئيس العمال أم أخفيتماه لكن التمثال أدى عمله جيدًا مع
صرخة هلع .. وبعدها تتركان تكدير الأمور للبروفيسور
العجوز الملتاع ... لقد راهنتما (وربحتما الرهان) على أنه

سيدون ما ظن أنه وجده فى دفتر مذكراته بخطه .. كدليل
لا يمكن تجاهله ... وفى تلك الليلة حين أدرك أن هناك
خدعة ما .. دخل (ميخائيل) الكوخ وصرعه .. ثم قمتما
بوضع التمثال المعد مسبقًا عند الفراش .. لقد دبرتما الأمر
كما تخيلتماه .. ونحتت (تابيثا) تمثالين لفأرين لتدعم
قصة الكيس المنقوب ، بعدها بصرخ (ميخائيل) ، (بمجرد
أن تنتهيا من إخفاء الجثة) وتبادران بالهرب من النافذة
قبل وصول النجدة .. ثم - كما هو متوقع - يبرز الزوجان
البرينان من كوخهما ويهرعان مع الباقيين لنجدة الأستاذ ..
- الواقع أن حادثة الكيس المنقوب حدثت فعلاً .. كانت
صدفة جميلة !!

- و (نيكوس) ؟ .. هل قتلتماه ؟

- .. بالعكس .. إن رئيس العمال العجوز تعاون معنا فى
تلغيق المشهد إلى أقصى حد .. وهو بنفسه الذى وضع تمثاله
فى القبر المعد مسبقًا - منذ عدة أيام - ليكتشفه هو ..
- وأين هو الآن ؟ ..

- ياله من سؤال ! .. فى واحد من الكهفين الموجودين
أسفل الكوخ ينتظر انتهاء هذه المهزلة ليهرب معنا إلى
(الولايات المتحدة) بعيدًا عن فقره وزوجته الثرثرة

اللفظة ... من حسن حظك أنك وجدت الكهف الآخر فلم
تقابله ..!

صحت في ذهول :

- ك .. كيف عرفتما 14

- إنك وجدت الكهف ؟ .. هذا بسيط جدًا .. لقد ذهبت
(تابيثا) صباحًا إلى الكوخ فلم تجد آثار أقدامها هناك !! ..
هناك من نظف الأرضية بعناية ليزيل آثار قدميه هو ..
وهو ليس أنا ولا (نيكوس) .. إذن من 14 .. إن مفاتيحك
المزيف لم يخدعني لحظة ..

تهدت في ضيق .. ثم واصلت الكلام :

- حسن .. لقد وصلت عبرتكما الذروة في مشهد
الكلب المتحجر ... إنها فكرتي .. فكرت فيها صباحًا
وتحجر الكلب ليلاً .. من المستحيل أن أتصور أنكما نحتما
كلنا بهذه السرعة ، لكن هناك تفسيرًا بسيطًا .. إنكما كنتما
تنتويان بالفعل أن تقترحا على استخدام الكلب .. ولهذا
أعدتما كلنا متحجرًا لهذا الغرض ، إلا أنني قدمت لكما
الفرصة بحمافة حين عرضت أنا استخدام الكلب .. وهكذا
نفذت الخطة بسهولة وأعتقد أن (نيكوس) هو من وضع
التمثال في اللحظة التي تركنا فيها المقبرة للحصى
عيوننا .. أرجو ألا تكونا من الشر إلى درجة قتل هذا
الحيوان .. البريء 14

قالت (تابيثا) في استنكار :

- مستحيل ..! هل تظننا سفاحين 14 .. إنه الآن يلعب مع

(نيكوس) في مخبئه السري ..

ألقيت عقب السجارة على الأرض .. وقلت مستطردًا :
- نأتى الآن إلى اختفاء الرأس ... كان هذا هو الحل
الوحيد والممكن لأنكما لم تجروا على ترك هذا الرأس
لقبضة العلم التي لا ترحم ... لهذا كان على الرأس أن
يختفى .. ليلة تحجر (البيروفيسور) ثم ليلة تحجر
(الكلب) .. لقد أجادت (تابيثا) خداعي حين استبدلت رأس
الكلب الحجرية برأس (ميدوسا) في كسر من الثانية ...
و .. هل استبدلت الرأس قبل أم بعد التصوير يا (تابيثا) ؟
- بالطبع قبل التصوير حين أبعثم أنظاركم عن
الصندوق .. إن الصور الفوتوغرافية كانت معدة مسبقًا
يا عزيزي (رفعت) ... ولو أنك قوى الملاحظة حقًا لكنت
قد لاحظت أنني كنت أرتدى خاتمي في الصورة في حين
كانت أصابعي بلا خواتم في الحقيقة ! ..

ابتسم زوجها ، قائلاً :

- إن الرجال لا يلاحظون هذه الأشياء أبدًا يا ملاكي ..

- كان هذا لحسن حظي ..

قلت مواصلة تجميع الصورة المبعثرة :

- طبقاً كان (نيكوس) هو الملك الجارس الذى جمع بقايا تمثال الكلب وأعادها للكوخ ليلتها ؟..
- طبقاً ..

تحدث فى إرهاب .. كانت لعبتهما شديدة الإحكام ؛ وكانت نتيجةها الحتمية هى الخلاص من البروفيسور المزعج الذى لن يفتش أحد عن جثته بعد اليوم لأن القصة كلها ستعتبر ظاهرة غير قابلة للتفسير يجكيها كتاب الغرائب فى كتبهم .. وكان اسم (ميخائيل) سيدخل كتب علم الآثار بدلاً من أن يدخل فى قوائم المحكوم عليهم بالإعدام ..

ضربة مزدوجة موفقة حقاً وقد تم التخطيط لها بعناية ، لولا ذلك (الشیطان الأصلع) الذى ظهر لهما فجأة ليفسد كل شيء باستنتاجاته بدلاً من أن يؤيده .. وهكذا غدا الخلاص منى حتمياً .. وبنفس الطريقة النظيفة التى تؤيد ولا تتحضر قصة (ميدوسا) ..

والآن ليس لديهما حل سوى قتلى .. ووضع تمثالى جوار الشاطئ ليحكى مأساة عشورى على الرأس الذى قذفت به الأمواج ..

قال (ميخائيل) بأسفا وهو يصلح شيئاً ما فى كاتم الصوت :

- فبم تفكر ؟..

- فى الهرب !..

تبادل وزوجته نظرة جانبية خبيثة .. ثم قال :

- لا أمل .. إنسى أستطيع أن أزيل كل أثر لتمثالك يا (رفعت) وأخفى كل ما ذلك على حقيقتنا .. ثم أتركك تحكى قصتك المعقدة للبوليس دون دليل واحد .. كلامك مقابل كلامى ..، لكن هذا سيفتح أبواباً لا داعى لها .. وسيجد البوليس منات الثغرات فى موقفى ... إنهم قادرون على إثبات أثار النحت فى تمثال البروفيسور .. وقادرون على العثور على الكهف .. وسيجدون منات البصمات - حيث لا ينبغي أن يجدها - فى كل مكان تقريباً .. وسينزحون قاع بحر (إبجه) كله إذا أرادوا بحثاً عن جثة البروفيسور ورأس (ميدوسا) المزعوم .. إن رجال البوليس جبابرة وليس من مصلحتى إقحامهم فى هذه القصة .. ألا توافقنى !؟

- بلى .. !.. لا يمكن خداع رجال الشرطة أبداً ..

- لهذا دعنا ننته من هذه القصة سريعاً ..

ورفع فوهة المسدس نحو رأسى ..

★ ★ ★

كلا .. لم أمت ..! بالطبع وإلا فما حكيت لكم حرفاً واحداً
من هذه القصة .. فقط سقطت من على مقعدى فأكد الوعى
من الرعب ... طبعا هذا ما تظاهرت به .. وقد تحطمت
إحدى عذمتى نظارتى خلال سقوطى الحمقاء ..

وهكذا سمعت (ميخائيل) يلعننى باليونانية ويهيب
نحوى ليرى ما هناك .. أنفاسه تقترب منى وركبته تلامس
وجهى .. ركبته اليمنى .. إذن فالمسدس على بعد
سنتيمترات أعلى من هذه الركبة حيث انحنى ليفحصنى ..
لا وقت للتردد أو للتفكير فى شعور من يخترق الرصاص
مخه ..

بسرعة البرق رفعت يدي و ... أمسكت يده .. يده
الملتفة حول زناد المسدس .. وثبتتها عند الرسغ ثم
وجهت أعنف لكمة ممكنة إلى ذقنه .. كان هذا كافياً فى
السيولما كى يترك السلاح .. إلا أن الواقع أكثر تعقيداً
للأسف .. إن الوجد لم يترك المسدس بل ازداد تشبهاً به ..!
ضغطت على الزناد فوق إصبعه بعنف .. سمعت صوتاً
غريباً .. بوف .. بوف .. بوف! كسعادة زجاجة من الفللين يتم
التزاعها .. ولم أفهم هذا الصوت إلا حين سمعت صوت
تهشم الأظفار على المائدة ..، إذن هذا هو صوت
الرصاص مع كاتم الصوت ..!

كان يفرس أنامله فى وجهى وهو يضغط على أسنانه
ويبتسم بقسوة وثقة مما زعزع ثقتى بنفسى (وهو تأثير
كان يتعمده طبياً) .. إلا أننى واصلت التشبث بالزناد
كالمسعود ..

لكماته تنهال على وجهى وعنقى .. وصوته الرزين
الهادئ ، يردد :

- هيا يا صغيرى! .. إن هذه الألعاب لا تناسبك ..!
هيا ..! أتركة!

وهنا لمحت بطرف عينى (تابيثا) تتقدم نحو كيسها
الملقى على الأرض وتخرج منه مطرقة .. مطرقة كبيرة ..
ولمحتها ترفعها وتتقدم نحوى وهى تقول له باليونانية
شيئاً ما ..!

لم أترك مجالاً للصدفة .. ثبتت ذراعه بعنف .. نحوها ..
و .. ضغطة أخرى على الزناد لأسمع المزيد من سدادات
الفللين تنفجر ... ولمحتها تُكذف نحو الحائط الخشبي
لتصدمه برأسها ثم تسقط على الأرض والدم ينفجر من
كتفها ..

كانت هذه الإصابة هى التى رجحت كفتى .. إذ تشتت
(ميخائيل) نوعاً .. وبدأت ثقته المفزعة بنفسه تتدهور ..

مددت يدي وهو يجثم فوقى .. المزيد من سدادات
 الفلطين .. بوف .. بوف .. بوف .. لكليك ..! لقد انتهت
 السدادات ..! فرغت خزنة الرصاص أخيرًا ..!، والآن نحن
 متعادلان إذا ما تجاوزنا عن قوته الجسدية المروعة ..،
 وإلى جواره أرى المطرقة .. المطرقة التي أفلتت من يد
 (تابيثا) حين سقوطها .. إنها في متناول أناملى ..
 أمد يدي لها .. أمسكها .. وبهد مرتجة أرفعها .. أهوى
 بها على رأسه بأرق ضربة استطعت أن أوجهها له لأشى
 لا أريد أن أفجر رأسه ..
 كان هذا كافياً .. إذ سرعان ما تراخت قبضته .. وتهاك
 جسده من فوقى .. تحسنت نبض عنقه لأتأكد من أنه لم
 يمت .. ثم تحاملت على قلمي المتخالفتين إلى الباب ..
 وفتحته .. ضوء الشمس بالخارج .. والناس الأبرياء ..
 صرخت بالعربية بصوت مختلف مرتجف :
 - النجدة أيتها الناس الطيبون ..! النجدة ..!

متهاثما عدت إلى (تابيثا) حيث أسندت ظهرها إلى
 الحائط ومددت قدميها على أرضية الكوخ .. كان الدم
 يفرق قميصها ، وثمة نظرة ثابتة مفزعة في عينيها وهي
 تنظر إلى وترند دون كلل :

- لماذا يا (رفعت) ؟ .. لماذا ؟ .. لقد كنا أصدقاء ..!
 بماذا ترد على هذا السؤال المستفز ..!؟ لأشء
 بالطبع .. لهذا ! اكتفيت بسؤال آخر وأنا أضغط على مكان
 النزف بمندبلى :
 - كيف تغيرت إلى هذا الحد يا (تابيثا) ..!؟ كيف تحولت
 إلى هذا الوحش ..!؟

قالت لاهثة والعرق البارد يكسو جبينها :
 - من السهل .. أن تقول هذا .. لقد ضحيت بكل شيء من
 أجل .. (ميخائيل) .. لكننا عرفنا .. الفقر .. والجوع .. لم ..
 يكن .. أمامى .. سوى أن أظل مع زوجى حتى النهاية ..
 إن .. شيطانة الجامعة .. المترفة .. تختلف كثيرًا عن
 زوجة .. عالم الآثار .. البانس .. هل .. فهمت ..؟ ..
 - لا ..!

أغمضت عينيها وازدادت شفاتها جفافًا .. القشور
 البيضاء تتجمع عند ركنى فمها :
 - لأنك .. أحمق .. أحمق كعهدي بك يا (رفعت) ..

وكان الرجال قد ملنوا الكوخ وشرعوا يتساءلون عما
 حدث .. حين أدركت أنني لم أعد أستطيع الصمود أكثر .. لم
 أعد أستطيع ..
 وسقطت على الأرض فاقدًا وعيي بالفعل هذه المرة ..

لم يمت أحد .. لقد نجا الزوج من ارتجاج المخ ونجت
(تابيثا) من الرصاصتين اللتين اخترقتا كتفها... وكان
تفسير موقفي عسيرًا في البداية لأن أهل الجزيرة ظنوا
أننى أنا المعتدى على هذين الزوجين الوديعين ..
إلا أن نظرة واحدة للكوخ الأخر ولمحتويات الكهفين
أسفله بما فيها من آثار نحت وتمثال لى و كلب (تابيثا)
و (نيكوس) نفسه ، كانت كافية جدًا لأن يفهموا كل شيء ..
وحين حضر زورق الشرطة ليأخذ الزوجين .. تحاملت
على نفسى وصافحت (ميخائيل) فى تهذيب ، وقلت له :
- فى المرة القادمة لا تبني خدعك على أسطورة وثنية
قديمة لأن هذا يفسد الأمر كله ..
ثم إننى نظرت لأمواج البحر المتلاطمة .. وهمست :
- هذا - بالطبع - لو كانت هنالك مرة قادمة ..
قالت (تابيثا) فى تنمر وشعرها يتطاير مع الريح :
- كان خطأنا الأكبر هو دعوتك .. ظننا أنك ستكون
شاهدًا معنا لا علينا ..
- أنت تتسبن يا صديقتى أننى مجرد هاوٍ يبحث عن
الأساطير ليهدمها .. وعلى كل حال أنا مدين لكما بثمان
التنكرة...! هذا حكمًا ..

- لا داعى لذلك .. إنه واجبنا نحو صديق قديم عزيز
مثلك ..!

- ما ممت مصرّة ..
وركبنا الزورق .. وهدر المحرك ..
لم ينظرا لى لحظة واحدة .. لكنى ظللت أرمقهما حتى
ابتعدا عن مجال بصرى ..
والآن أعود لمصر ..
الآن أنعم ببعض لحظات الراحة والأمن بعيدًا عن هذا
الكابوس ..
إلا أنه - فى تلك اللحظات - كان هناك كابوس أكثر
شناعة يخرج من مكمته لينتظر عودتى بفارغ الصبر ..
ولم أكن أعرف ..
كعائتى لم أكن أعرف ...
لكن هذه قصة أخرى ..

د . (رلفت إسماعيل)
القاهرة ١٩٩٢

* * *

[تمت بحمد الله]

